

كتاب القصيدة



جيمس بيك

ترجمة

نجيب حفظ



طبع بطبعة الملة الجديدة
شارع الملك نازل ١٤٩
بالتايمز



نَعْرَاءُ الْعَدْبِيَّةِ

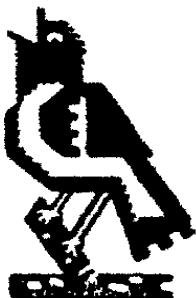
جِيمِسْ بِيْكِي

تُرْجُمَةٌ

حَبِيبٌ مُحْمَوْطٌ



طبع عطعة اهلة الحدايد
شارع الملك مارلي ١٤٩
مسقط



الفصل الأول

ارض ذات شهرة قديمة

لو سأنا سائل عن أعظم أمم الأرض حفولا بغير انت لذكر سوادنا فلسطين ليس ذلك لوجود شيء غريب فيها - ولكن للحوادث العظيمة التي مثلت على أرضها . وفوق ذلك فقد كانت موطن نبينا وبعد فلسطين تأتي مرتبة مصر وفيها تمت سلسلة القصص التي بدأت على أرض فلسطين والمذكورة في العهد القديم . ذلك العهد الذي يخبرنا عن يوسف الصبي الرقيق الذي صار نائب ملك مصر ، وعن موسى الطفل الإسرائيلي الذي صار أميراً في عائلة فرعون ثم كان بطل قصة خروج بنى إسرائيل من أرض مصر ، وفضلاً عن ذلك مصر لها تاريخها الخاص بها ترويه آثارها إلى اليوم تم إلى غدر بـ . . . ديم . هنا ين أمة الأرض القديمة نظير له ما لها من الملك المظام وأرحاب أعقلاه والجنود التتجuhan . ولا يجد انسان في مملكة غيرها آثاراً ومخلفات لها صفات للآثار المصرية من الروعة والجلال .

ان لنا بعض المداني القديمة وهي الحصون والكنائس التي يرجم وقت تشييدها الى حمساًة أو ستمائة عام وربما أكثر . وكم يتعدد الناس من مشقات السفر ليشاهدوها في مصر تعد أمثل هذه المداني من الآثار الحديثة العهد ولا يكاد يحفل برقيتها انسان ، ويعدّ تتصور ذلك اذا عدت أن المعابد العظيمة والمقابر الهائلة الموجودة الآن في مصر تسبّبت قبل أن يبدأ الكتاب المقدس مئات السنين

ولأضرب لك مثلا بالهرم العظيم بي لايرو آخرة الديا فهو لم يشيد قبل
أى بناء قائم الآن في أوروبا بآلاف السنين فقط وأما تسيد قل أن يباع يوسف
ريصير ريقاً في منزل بوتيفار . وآلاف الأعوام قبل ان يسمع انسان بالأغريق
والروم ان يحكم مصر ملوث عظام يرسلون بجيوشهم لتغزو سوريا والسودان
ويبعثون سفههم ل تستكشف البحار الجنوبيه . وكان حكام المصريين يضعون
الكتب التي نقرأها الآن

وقى الوقت الذى كانت بريطانيا جزيرة مجهولة مسكونة بالتوحشين والسموم كلّهم
لتوحشهم وهمجيتهم سكان جزر البحار الجنوبيّة ، كانت مصر أمة متدينة كثيرة
المدن العظيمة عديدة المعابد والهياكل والقصور وان سكانها من أعقل الرجال
وأعظمهم علياً . وقد قصدت — في هذا الكتاب الصغير — أن أروى لك تفاصي
من تاريخ هذه الأمة العجيبة وأبين لك نوع الحياة التي كان يحيىها الناس في تلك
ال أيام الغابرية — قل أن تبدأ الأمم الأخرى في الاستيقاظ وقبل أن يكون لها تاريخ
ولكن قيل أن أبدأ في قصتي دعني أكون لك فكرة عن جغرافية الأرض .
ويجدر في هنا أن لا يلاحظ أن أعظم الممالك خطراً في التاريخ كانت من أصغرها
مساحة ، فبريطانيا لا تعدد مملكة واسعة رغمًا عن تاريخها المجيد ، وفلسطين التي
أسدت للعالم أياد لم تسدّها أمة أخرى كان يطلق عليها « الأرض الصغيرة » ، تم
تل فلسطين في هذه المرتبة بلاد الأغريق وماهى إلا زاوية جبلية في جنوب أوروبا
ومصر أيضًا أرض صغيرة

ربما خيل إليك وأنت تراها على الخريطة أنها كبيرة المساحة ولكن ينبغي أن
تذكرة أن معظم الأرض التي تقرأ عليها « مصر » صحراء أو تلال صخرية حيث
لا يقدر لسان على الحياة ، أما مصر الحقيقة فهي تسيطر في على جانبي النيل ،
وفي بعض الأحيان يكون امتداده ميل أو ميلين داخل الرمال التي يخترقها النيل
ولا يزيد على ثلاثة ميلاً في أي جهة من النهر اذا استئينا الجزء الشمالي منه المسى
الدلتا وقد شهده بعضهم وادي النيل ينسق ذي ساق ملتوية وقد صدق في تشبيهه ،
فالنيل هو الساق الملتوية والدلتا هي الزهرة وتحت الزهرة مباشرة توجد برعمه
صغيرة — وادى خصب هو الفيوم . وفي عهد مضى قبل أن يبدأ تاريخ مصر نفسه
لم يكن للرنق رهبة

فقد كان النيل أوسماً بكثير مما هو عليه الآن . وكان يصب في البحر نقرب
القاهرة — العاصمة الحديثة لمصر — ولم تكن الأرض إلا ذلك الوادي الضيق
المحدود من الجانين تلال الصحراء

ولذلك على مرور الأيام قرابة مائة قرن حفر السيل مجرأه فزاد عمقه وغارت المياه
وأنخفضت تدريجياً لذلك ، تاركة أرض خصبة بين المجرى الجديد والتلال . أما الطين

الذى حملته المياه فقد كان يرسب عند المصب حتى كون الدلتا كا هي الآن تقريراً
كانت مصر كذلك قبل أن يبدأ التاريخ . فلما ابتدأ التاريخ كانت الدلتا أرض
مستنقعات لأنها كانت حدية التكوين في مكان البحر قبل أن يطرد النيل بطينه مياهه
• وكان سكان الوادي يحتقرن الناس الذين يعيشون بين المستنقعات وحتى بعد
أن تم تكوين الدلتا لم تكن مساحة الملكة كلها لتعادل مساحة ويلز مرتين ومع
ذلك كان يعمرها عدد عظيم من السكان — عظيم بالنسبة لمساحتها — وكان يبلغ
على أكثر تقدير — قدر سكان لندن مرتين

قال مؤرخ أغربي قد يرى « مصر هبة النيل » وهذا صحيح
لقد رأينا كيف أن السهل كونها باختراقه طريقةً بين التلال وتكوينه الدلتا ،
وهو لم يخلقها فقط بل هو يحفظ لها حياة مستديمة
ولقد كانت مصر — كا هي الآن — من أخصب البلدان أرضاً ، ومن ميزاتها
أن ينمو بها أغلب أنواع المزروعات فهي تنتج أجود أنواع القمح والخضروات
والقطن .

ولما كانت روما عاصمة العالم كانت تستورد ما تحتاجه من الخشب من مصر
بواسطة سفن الاسكندرية الشهيرة ، وأنت تذكر ما يروى الانجليز عن آخرة
يوسف الدين أتوا مصر من فلسطين التي اجتاحتها المجاعة — ليشتروا من قبح مصر
ومن هذه الخصوبة فالمطر غير معروف في مصر ، نعم قد تمطر السماء في أحابين
قصيرة من عام طويل لا تسقط فيه من السماء قطرة

كيف يتيسر لأرض لا تمطرها السماء أن ينمو بها أجود أنواع البذار ؟
سر ذلك السهل : ففي كل عام إذا سقطت المياه في أواسط أفريقيا وعلى جبال
المحيضة ازداد النيل ارتفاعاً ، وحلت الامواج إليه طيناً كثيراً ، وفي هذه الحال
تغمر المياه الأرضى ثم تتركها بعد أن يرسب فيها الطين ، ولما كانت المياه لا تصل
إلى الأرض المترفة فإنه يصل إليها ترعة ثم تقسم هذه الترعة إلى قنوات صغيرة
حتى تتخلل جميع الأرضى وتسير فيها المياه كما يسير الدم في الأوردة والشرايين
وقد تتجزء عن هذا النظام أن زادت خصوبة الأرض وارتوى منها جميع الجهات
ففوّضت بذلك ما يمكن أن تكسبه الأمطار من المياه في الأرضى التي تسقط فيها

ولولا نهر النيل ل كانت مصر قطعة من الصحراء ليس فيها ما يميزها عن بقية أجزائها ، وليس من شيء في حياة مصر يسترعى الانتباه إلا تاريخها العظيم ، ذلك التاريخ القديم الذي وسم القطر بسم سحرى جعلها مصدر جاذبية لمجتمع الناس . وكذلك آثارها المجيدة ، ولهذا لا توجد أمة غير مصر تشاهد فيها السكان الأصليين ومظاهر الحضارة القديمة كما كانت في بدء تاريخها هنا تستطيع ان تشاهد معابد الآلهة القديمة وهي كلها والقبور الهاائلة التي لم ترها عين انسان ، بل تشاهد السيف والحراب والخوذ التي كان ارب بها الملوك والجنود الشجعان — لاجل وطنهم — قبل أن يشتراك داود في حروب بنى اسرائيل بآلاف السنين

ومن الصور المختلفة على جدران المعابد والقبور أمكننا أن نعرف كيف كان هؤلام الناس يعيشون في تلك الايام الماضية ، وكيف كانت تبني بيوتهم وكيف كانوا يكسبون ويعملون ، وكيف يلهون ويقصفون — وكيف يعبرون عن هم دفين في وقت الاسى والحزن ، ثم كيف يعبدون آلهتهم ، تراهم في هذه الصور وهم يقومون بهذه الاعمال كلها ، بل تستطيع ان تعرف ما كان يغرس به الاطفال من أنواع اللبو واللubb ، وتعرف اللعب والعرائس الجميلة التي كانوا يلعبون بها ، وتستطيع ان تقرأ القصص التي كانت ترويها الامهات والمربيات لاطفالهن كل هذا مما يُهل مصر جاذبية خاصة وسحر خيالي بدائع . وما قصدت اليه هنا هو أن أصور لك بعض نواحي هذه الحياة ل تستطيع أن تكون لنفسك صورة في مخيلتك عن الحياة في هذه الايام

الفصل الثاني

یومِ فلیب

لو أراد غريب ان يكون لنفسه فكرة صحيحة على حالتنا الحاضرة والدرجة التي بلغها من الحضارة والرق فأول مكان يخطر له ان يقصده ليشاهد هو لندن لأنها عاصمة المملكة ومدينتها العظمى وعلى هذا القياس لو أردنا أن نستقي أخباراً صحيحة عن الحياة المصرية القديمة وكيفية طرق المعيشة فيها وأحوال الناس ووسائل معيشتهم ينبغي لنا ان نذهب الى عاصمتها ثم نعمن النظر فيما عساه ان يقع تحت بصرنا وعلى ذلك أفرض أنتا لم تعد من سكان بريطانيا وانتا لستا من أبناء القرن العشرين بل أنتا رجعنا الى الماضي البعيد وأنتا من أحياء سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد . أى قبل أيام المسيح وقبل عهد موسى أيضاً

وصلنا من «صور» في سفينة فرعونية محملة بأنواع مختلفة من الملابس والأقمشة وأوعية من برونز ونحاس على أمل بيعها في أسواق طيبة أعظم مدينة في مصر لقد رست السفينة على شاطئ البحر على مقرية من مصب النيل بعد ان كنا هالكين — لاحالة — في عاصفة هائلة لم تنج منها إلا بعد جهد جهيد ودان معنا على السفينة دليل مصرى وقد وقف على منحنى السفينة يصبح بأعلى صوته ليعلن الاتجاه الذى يجب ان تسير فيه السفينة — وكان مدير المدافعين الكبارين الملاصقين بجانب السفينة عند مؤخرها يوجها السفينة تبعاً لتعاليه وكانت الريح الشمالية تهب بقوة وعنف وتدفع السفينة بقوة حتى سارت بسرعة رغم امواج النيل الثقيلة التى تسير فى اتجاه مضاد لاتبعاً لانحدار النهر صوب البحر ولذلك فقد ترك العمال المدافعين بعد ان انتهكت قواهم وسرنا جهة الجنوب بعد ان أطلقنا الشراع فى الماء . وكنا نرى على جانبي النيل أراضٍ واسعة بعض

سُل لِّين تنمو به نباتات مختلفة والبعض تلتفت المستنقعات التي تنمو على حافاتها نباتات شيطانية

وكلما تقدمت بنا السفينة صوب الجنوب كانت السهول الزراعية تضيق شيئاً فشيئاً وكنا قد شارقنا على مؤخر الدلتا ، بل أخذنا نسير في وادي النيل

ولقد مررنا على مدينة عظيمة تناطح معابدها العالية السماء الزرقاء . وعلى ساريات المعابد تتموج اثرايات ، والمسلاط منتشرة هنا وهناك وقد أخبرنا دليلاً بأن هذه المدينة هي عفيس — وهي من أقدم مدن مصر وكانت عاصمتها يوماً من الأيام . وعلى مقربة من عفيس شاهدنا الاهرامات الثلاثة تظهر كأنها جبال عالية ، وقد علمنا من دليلاً بأن هذه الكتل الحجرية التي لا تمثل لها في الصخامة والعظمة هي مقابر الملوك الأقدمين ، وان ما يحيط بها من أهرامات أصغر حجماً وأقل خطراً هي مقابر بعض أمراء وعظام الدولة

ولما لم تكن عفيس هي الغرض من رحلتنا فقد وصلنا السير صوب الجنوب ، وانقضت عدة أيام والسفينة تبحرت بنا عباب الماء دون انقطاع

ولقد مررنا بمدن كثيرة وقد استوقف نظرنا من بينها مدينة متهدمة خربة لم نر من آثارها إلا أكواخ الحجارة والترباب وقد قال لنا الدليل أن تلك الخرابات كانت مدينة من أجمل مدن القطر بل وكانت عاصمة لأحد الملوك . غير أنه آمن بالآلة جديدة وحاول أن ينشر دياته الحديثة فعمد إلى الآلة القديمة وهدمها وخرب معابدها ثم حمو آثارها ويبعد عن الذهان اسمها وأخيراً — بعد سفر طويل — لاحت لنا عن بعد أبنية عظيمة على شاطئ النيل ، ثم تبين لنا أنها مدينة عظيمة لم نر لها نظيراً فيما رأينا من مدن الأرض ولما اقتربت السفينة من المدينة ميزنا أمامنا مدینتين في الواقع ، فعلى الشاطئ الشرقي للنيل تقع مدينة الاحياء بأسوارها المرتفعة وأبراجها العالية ومعابدها العظيمة وصفوف منازلها التي لا يرى لها أول ولا آخر ، من قصور النبلاء إلى أكواخ الفقراء

أما على الشاطئ الغربي فتقع مدينة الاموات ولم يكن فيها قصور ولا شوارع وكان الناسون يخيمون عليها وأهددو يسللوا ولا يستطيع الناظر إليها إلا أن يتصر بالخشوع والحزن والسكاوة

ولقد رأينا فيها تلالاً متعدّياً بها فتحات كثيرة مترابطة تظهر سللاً ينحدر ،
هذه هي قبور طيبة حيث يرقى أمواتها من سنين لا عداد لها
وفي المكان الفسيح الممتد ما بين النيل والتلال الغربية توجد هيكل مترابطة
يخيّل للناظر أن ليس لها حصر ، وبعض هذه الهياكل متین الجدران سليم البنيان
عظيم الحجم والبعض الآخر واهي الأساس متهدّم الجدران لم يبق منه إلا أثر ضئيل
وكان إذا سقطت أشعة الشمس عليها انعكست مرسلة في الجو أسلاناً من
ذهب وقرمز تبهر العين
أخذت سفينتنا تقترب من الشاطئ لرسو هناك . وبذلك تكون قد
انتهت رحلتنا

ولقد أتي نحوها في الحال ضباط البحر المצרי في قوارب ليفتتشوا امتعتنا
وليجمعوا منها ما يحب دفعه عليها ، ولقد جلسنا نراقبهم بحذر وسرور لأن مظاهرهم
كان غريباً عن كل الغرابة ، فهم مختلفون عن ملائكتنا ذوى اللحى المرسلة والمعاطف
ذات الألوان الكثيرة اذ يخلق المصريون لهم وشعورهم وبعضهم يضع على
رأسه شرعاً مستعاراً ويطلقونه مسترسلة حتى الاعناق ولا ريب أنهم يتکبدون
طبعاً جماً في تنسيقه وتمثيله ، وسواءهم يرتدي ملابس من الكتان قصيرة ، أو شبه
برداء الجندي السكسونيين »

أما رئيس الضباط قيرتدى معطفاً أبيض جيلاً فوق رداءه « السكسوني »
و حول وسطه منطقة ذهبية لها أهداب طويلة تقاد تلامس ركبتيه وفي يده اليمنى
عصا طويلة لا يتأخر عن الهاوب ظهر أحد أتباعه بها إذا قصر في تأدية واجباته
وبعد مناقشة بيننا وبينه أعطيناه المبلغ المطلوب وصرنا بذلك أحرا را في ان
نتوجه إلى أي ناحية من أنحاء المدينة

ولم تعمق داخل المدينة مسافة قصيرة حتى تجلى لنا ما كانت عليه من العظمة .
وما وصل إلى آذانا ، علينا أنها في حركة دائمة تدل على الحياة والنشاط
ولكنا سمعنا ضوضاء داوية آتية من الشارع الضيق الذي يسابر النيل ورأينا
بعد برهة جماعة من العمال تصخب وتصرخ وتتدافع بعنف في شكل مظاهرة

ويتقدمهم شخص ظهر لنا من حالته التي كان يرثى لها أنة يجري فارأً من العمال وانه يخشى على نفسه منهم ان يصيده بسوء ودان العمال في حالة زرية عرايا الاجسام الا ما يستر عوراتهم ، والظاهر ان المجموع عضهم مثاروا وأضرموا عن علهم ولم يجدوا أمامهم من يصيرون عليه جام غضبهم الا هذا الرجل العجوز الذي يجري أمامهم محاولا النجاة بحياته

وأتجه الرجل العجوز نحو قصر جميل تحيط به حديقة غناء ذات أسوار ضخمة ولما يئس العمال من اللحاق به رموه بالحجارة فأصابه بعضها وتتفجرت الدمام من عدة أجزاء من جسمه ، ولكن رغما عن ذلك جرى بقوة نحو باب القصر وهمس في أذن « الباب » بضع كلمات — ثم دخل إلى الحديقة ، تم أغلق الباب في وجه المطاردين الذين اضطروا للوقوف وقد أخذ الغضب منهم كل ما أخذوا وأخذوا يهزون قبضاتهم في الهواء مهددين مز مجردين

وبعد فوات مدة قصيرة فتح الباب وخرج منه رجل جميل الطلة بادى النعمة والجاه ، يتبعه ستة من العبيد مدججين بالسلاح

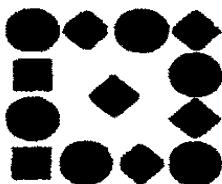
هذا الرجل هو الأمير باسر الذي يهيمن على مصلحة العمل في حلمة طيبة .
أما العمال فكانوا بنائيين يقومون بعمل فوضى اليهم في مقبرة طيبة

قال الأمير العمال عما جعلهم يحدثون هذا الشغب ويطاردون سكرته
وقد رد كل واحد منهم بما شاء على هذا السؤال خدت ضجة عظيمة ولم يفهم
الأمير كلمة واحدة ، فأنا بوا عنهم واحداً يتكلم بلسانهم وقد ابتدأ الرجل الكلام
في تلعم واضطراب ولكن لم يلبث أن زال عنه ما الجم لسانه من الخوف وبلغ
الأمير الشكوى

قال انه وزملاءه يشتغلون منذ أسابيع ولم يأخذوا أجراً مقابل اتعابهم ، حتى
القمع والزيت اللدان هما حق لكل عامل من عمال الحكومة

وعليه فقد قصدوا سيدهم يضرعون اليه ان يصرف لهم جرايمهم ، فان كانت
المخازن خاوية فليرفع شكوكاهم لفرعون . « إتنا مسوقون الى هنا بدافع المجموع
والظلم ، ولا نملك ملابس ولا زيت ولا طعام فاكتتب لفرعون يرسل لنا ماتقوم
به حياتنا »

ولما أتم الرجل كلامه وافق الجم عل أقواله وتماوجوا هنا وهناك في خلافه
وعيد وتهديد . وهنا وعدهم الامير بأنه سوف يرسل اليهم خمسين كيساً من القمح
في مكان عملهم وطلب منهم ان ينفوا من حيث أتوا وان يستأنفوا عملهم ويكتفوا
عن مطاردة سكرتيره ، وإنما فهو لا يستطيع أن يصنع لهم شيئاً
وترددوا مدة لأيام منوا قبل ذلك بالوعود التي لم يوف واحد منها ، ولكن
لما كانوا ينتظرون زعيم ماهر ليقود العصيان ولما لم يكن معهم سلاح يدافعون
به عن أنفسهم وقد كانت رماح العبيد تظهر مخيفة في أيديهم ، فقد آتوا من حيث
أتوا متذمرين ساخطين ، أما الامير فقد دخل القصر وهو يهز كتفيه ، وأما
ارسال الاكاس أو عدم ارسالها . فهذا شيء آخر
فالاضراب – ها نرى – لم يكن مجھولاً في هذه تلك الايام



الفصل الثالث

يُوْمٌ فِي طَهِيرَةٍ

بعد أن مر أمامنا منظر إضراب العمال وعودتهم إلى عملهم ثانية — واصلنا سيرنا إلى قلب المدينة؛ ولقد لاحظنا أن شوارعها ضيقة؛ وتقابل المنازل من فوق الرؤوس هنا وهناك؛ فكان يحدث أننا نسير تحت منازل متصلة كمن يسير في سرداب مظلم وبعض المنازل عظيم الاتساع شاهق الارتفاع ولكن مظاهرها الخارجية على العموم غير جميلة

فقد يكون داخل المنزل جيلاً فاخراً تكتنفه الحدائق الغناء الحافلة بجميلع أنواع الأزهار والأشجار، وفي وسطه بركة بدعة وغرفة مؤثثة بأنثر الرياش منينة بأجل الستائر ولكن أسواره الخارجية سوداء و لها باب ضخم عظيم ثم مررنا بأحياء مكشدة بالأكواخ الحقيرة مزدحمة بالمارين حتى أنه صعب على المار أن يشق لنفسه طريقاً، هذه هي أحياء العمال ولا تذهب في أي جهة منها والا وتشعر بالحرارة المرتفعة وتشم الروائح الكريهة التي لا تطاق ، وكم عجبت كيف يستطيع انسان ان يعيش في أمثال هذه الاماكن

وبعد أن قطعنا شوطاً كبيراً انتهى بنا المسير إلى ميدان فسيح — وهو سوق من أسواق المدينة — والعمل هناك في حركة دائبة ، والحوانيت عبارة عن خيم أو مظلات متوسطة الاتساع ومفتوحة من الجهة الامامية ، وترى الصنائع موضوعة في الداخل والخارج بينما يجلس صاحب المخزن القرفصاء متأنها للبيع والحساب ويلفت اليه الانظار بصوته العالى وهو يشيد بجودة بضاعته ورخص ثمنها

وكان الناس وهم من جميع الطبقات والاجناس يذهبون ويحيطون دون أن ينقطع ذهاب تيار فان أمثال هذه الاسواق كانت تجذب اليها الناس من جميع أنحاء القطر وأصرت النساء القديم

فأهل المدينة يأتون ليشتروا حوانج منزلية وليتبادلوا الاخبار المختلفة وال فلاحون يبادلون ما يحملونه من قطعان الحقول ومحصولاتها بالبضائع التي لا توجد إلا في المدن ، ويحيى كثير من السيدات النبيلات يتبعهن الخدم ليتنقّلوا من بين المعارض ما يروقهن من الجلاييف المزخرفة والصنادل الجميلة وكنا نرى غير ذلك كثيراً من الغرباء ، وقد رأينا حيثياً من قادر وحوله مظهر خاص به يميزه عما سواه ، يضع على رأسه غطاء على القمة وبشرت صفراء وحذاوه ثقيل . ويسير ملتفتاً حواليه وعيناه تبرقان بحب الاستطلاع والجشع كأنه يعتقد أن طيبة خير مدينة للنهب والسلب ، وشاهدنا كاهناً من الطبقة العليا يسير برأسه الحلوقي لافا حول كتفيه جلد نمر عمسكاً بيده درجاً من درج البردي ويتبعه سرديني يسير متغطرساً وقد انعكست أشعة الشمس على قرنى خوذته وتمايل السيف المعلق بجانبه ، ولبي من رماة القوس يتبعه بقوسه ويلفت الانظار إليه بريشيته المعلقتين في غطاء رأسه وكان الجمجمة منهكين في البيع والشراء والمبادلة . والنقود التي تستعملها الآذ كانت بجهولة في تلك الأيام وهذا كانت المبادلة أساس المعاملة التجارية وكثيراً ما كانت المناقشة تختد والأصوات تعلو إذا ما اختلف على عدد السمكates — مثلاً — التي يصح أن تبادل بفراش أو على عدد أكياس العسل التي تقدم في مقابل مقعد نغم . وهكذا . ولما كان المصري — بطبيعته — ميالاً للتساويم ، ماهرًا فيها فقد كانت ضوضاء الكلام لا تنخفض أبداً ، وكثيراً ما كان يخرج بعض التجار عن العادة المتبعة في المبادلة فيبادلون بالخواتم التحايسيا والفضية والذهبية بدلاً من البضائع . فإذا أراد فلاح أن يبيع ثوراً يقدم له التاجر نظيره تسعين خاتماً تحسيناً ، ولكن الفلاح يشكو قلة الثمن ويصرح بأن مثل هذه المبادلة تعد سرقه وبعد مشادة طويلة يرفع التاجر عدد الخواتم إلى أحد عشر فوق المائة فيتم الاتفاق بذلك . ولكن يتحقق الفلاح بأنه لم يخدع بعد لوطن الخواتم ويأتي بميزان كبير ويضع الخواتم في كفة ويوضع في الدهنة الأخرى أتقلاً « على تشكل رؤوس التيران » ولا يهدأ تأثره إلا إذا انخفضت كفة الخواتم ، ولكن رغم حذره وسدة احتراسه فإنه لا يجمع الخواتم في كيسها

ويسيء في حال سبيله حتى يكون التاجر قد استرجع كثيراً من الخواتم إلى محلها الأول

وبعد ذلك ضربنا خيمتنا وعرضنا فيها ما حملنا من نفاثس البضائع ، وكانت أقشة ذات ألوان زاهية ، وكان جارنا صائغاً وهو دائماً منهمكاً في عمله قابضاً على منفاسه وأمامه فرن الصغير ، وكان يلجم سواراً لأمرأة تنتظره بصبر وأناء وفي أحدى نواحي السوق يقع منزل كبير ولم تسكن به بضائع ولا معروضات وكان الناس يدخلونه زرافات زرافات - وكان كثير من العمال يدخلونه ثم يغيبون يرهة ويخرجون لهم يمسحون أفواههم ويترنحون في ضعف والخلال ولقد رأيت شاباً يتربع يتجه نحو باب المنزل وكان بجانب رجلان فلما رأه أحدهما قال لزميله «أن بتتوير ذاهب مرة أخرى ليضي يوماً في سرور سوف تكون نهاية هذا الشاب سيئة»

وخرج بعد وقت قصير بتتوير وكانت قدماه لا تستطيعان حمله وبعد أن تمايل ذات اليمين وذات اليسار سقط على الأرض لا حراك به كمن فقد الحياة ، وترك على هذه الحالة المخزية والمارة يضحكون منه دون أن يكتروا لشأنه ، وحدث أن مر به رجل وابنه ولما تأمله قال لابنه «انظر إلى هذا الشاب يابني واتمظ عصيره وعاهد نفسك على ألا تشرب خمراً فانها تلف صحتك وتلوث نفسك بالأوحال ، فإن صرعت يسخر منك الناس ولا يعد لك أحد يد المعونة ، حتى رفقاؤك فانهم يتركونك ويدهبون ليشربوا ، ولا ترى إلا راقداً في الطين وغائباً عن الوجود»

ولكن أمثال هذه النصائح كانت تذهب هباءً لأن المصري ميال بطبيعة لقضاء «اليوم الطيب» ، كما كان يدعى اليوم الذي يقضيه في الحان ، حتى السيدات الجميلات كن يشربن حتى يتغدر عليهن المشى ويرفعن وهن في حالة اعياء إلى منازلهن مضينا في سيرنا ببطء وتمهل حتى اقتربنا من الحي المقدس في المدينة حيث لاحت لاظارنا المعابد العالية والمسلاط العظيمة من فوق أسطح المنازل

وقد رأينا عن بعد جماعات من الناس مقبلة نحونا في مظاهرة كبيرة وسمينا أصوات العليل والذى . وقد سألنا بعض المارين مستفسرين عن هذا الموكب وأخبرونا بأذه احتفال ديني . وأن هذه الجماعة تحمل صورة صغيرة للرب آمون الله

طيبة العظيم ، وانهم يتأهبون لحفلة دينية كبرى سيكون على رأسها فرعون نفسه ووقفنا ملتصقين بأحد أبواب المنازل من شدة الزحام وراقبنا الاحتفال وهو يمر أمامنا ، فر الموسيقيون والمعنون وأخذت النساء برقصن ويحركن في أيديهن قطعا من المعدن ، وشاهدنا في وسط الجماعات ستة من الرجال كانوا مركز المظاهر الدينية واليهم كانت تتجه الانظار

كانوا طوالا نحافا ، حادى النظرات ، محلوق الرقوس ملفوف الاجسام في أنوار بيضاء من السكتان المصرى الجميل . وكانوا يحملون على أكتافهم - بواسطة قضبان - انموذجا لقارب نيلى مقام في وسطه تمثال صغير ، وكان هذا التمثال مغطى بستر لم يظهر منه شيء ظنهم أرادوا أن يخفوا الآله عن عيون المتطفين وكان أمام الباب الذى كنا مستندين عليه عمود خشبي مثبت في وسط الشارع ، فلما وصل الرجال الى هذه البقعة وضعوا القارب الصغير على قته ، وكان مع اثنين منهما بخور فرقاه وتصاعد دخانه حول القارب والتمثال

ثم رفع كاهن صوته وعدد مناقب الرب العظيم الذى خلق كل شيء وصان كل شيء ، وعلى أثر ذلك تقدم بعض الواقفين وقدموا للرب أزهارا أو فواكه وأكولات أخرى

بعد ذلك أتت الدقيقة الرهيبة ، وتقدم كاهن من التمثال وأزاح الستر الذى يخفىء فى وسط سكون خيم كتبت فيه الانفاس ، ورأينا أمامنا - صورة خشبية لايزيد ارتفاعها عن ثمانى عشرة بوصة ، مزينة بالاوسمة ، وملونة بالاخضر والاسود

ولقد كان لظهور الصورة من التأثير على الطيبين ، وهي أقدس شيء في العالم في نظرهم ، ما جعل المستheim تلهم بآيات الاعجاب والعبادة اسدل الستر بعد ذلك على التمثال وواصل الموكب سيره وتبعته الجموع الغفيرة ، فعادت الشوارع إلى ما كانت عليه من السكينة والهدوء.

وكان علينا إن أردنا مشاهدة فرعون في أثناء مروره إلى معبد آمون - أن نسرع بتناول الغداء ، وعلى ذلك رجعنا إلى شاطئ النيل مخرقين الشوارع المضلة التي قطعنا في سيرنا الأول وذهبنا توا إلى سفيتنا لتناول طعام الغداء

الفصل الرابع

فرعون في القصر

أذف الوقت الذى قرر أن يذهب فيه الملك إلى المعبد العظيم بالكرنك ليقدم أضحية . لقد ذهبتنا إلى الطريق الذى يوصل ما بين القصر وطريق المعبد . لنشهد فرعون وموكه الملكى

وأحب الآن أن أحذثك عن فرعون والحياة التى يحياها ليست كلمة « فرعون » اسمه الحقيق وليست هى لقبه الرسمى ، وكل ما فى الامر أنها لفظ كانوا يدلون به على أحد العظماء الذين يتبعون من ذكر أسمائهم ، كما كان يذكر الترى « الباب العالى » اذا عنى السلطان وحکومته وعلى هذا القياس كان المصريون يطلقون لفظة « فرعون » على ملوكهم العظام ومعناها اللغوى « البيت العظيم » وقد كان ملك مصر عظيمًا حقاً ، وكان الناس لذلك ينظرون إليه كما لو كان أكثر من انسان عادى ، وكان هو نفسه يعتقد أن ذلك صحيح لا ريب فيه . نعم لقد كان المصريون يبعدون آلهة متعددة ولكن أقرب هذه الأرباب إليها إلى نفوسهم وأحوزها لاحترامهم وعبادتهم كان ملوكهم لقد حكمت الملوك مصر منذ أزمان غابرة ، ولقد كانوا دائمًا يعتقدون أن ملوكهم آلهة كامنة في لحم بشري وكان الملك يطلق على نفسه « ابن الشمس » ، وعلى جدران المعابد ترى صورة الملك وهو صغير جالساً على خذ الرب الذى يدلله كما يدلل الأب ابنته

وتبعاً لهذا الاعتقاد فهم كانوا يبذلون في سيله كل عزيز لديهم ويقدمون له اذواع الضحايا فإذا صعد إلى السماء لاحقاً باخواته الآلهة شيدوا له معبداً عظيماً لاحياء ذكره على الأرض ، ويخصص لهذا المعبد جماعة من الكهنة يسلخون حيائمه في شادته والتغنى بمناقبه ولكن يوجد ظارق واحد بين فرعون وبقية الآلهة ، فالارباب أمثال آمون في

طيبة ، وباتح في عفيس وغيرها تدعى « الآلة العظام » ، أما لقب فرعون فيختلف عن ذلك . ويُدعى « الآله الطيب »

وفي الوقت الذي أتحدث عنه كان « الآله الطيب » رمسيس الثاني ، ولا ريب أن هذا جزء صغير من اسمه الكامل ، لأنه مثل جميع الفراعنة له قائمة من الأسماء تملأ صحفة

ولم تكن رعيته في طيبة قد رأته من زمن طويل ، لأنه كان غائباً في سوديا يحاول حل عدة مشكلات سياسية ، فلما رجم مصر انهمك في بناء عاصمة جديدة في تنيس أو « زون » ، كما يدعوها اليهود . وهي واقعة بين الدلتا والحدود الشرقية وكان يمضي معظم وقته فيها

وجميع الذين شاهدوا العاصمة الجديدة يثنون عليها أجمل ثناء . ويشيدون بعظمها اشادة بليغة ويسيرون في وصف معبدها الجديد وتمثال فرعون المقام أمامه البالغ ارتفاعه تسعين قدمًا ، ولكن حتى في ذلك الوقت كانت طيبة لاتزال مركز حياة الشعب التجارية

وكان سبب قدوم الملك إلى طيبة هو توقيعه قيام حرب بينه وبين الحيثيين ، وقد أتى ليستشير أخاه الرب آمون ، ليجمع جيشه

وكان القصر الملكي في حركة غير اعتيادية فالرسل ذاهبون آتون والقواد المستشارون يدخلون وبأيديهم التقارير والأوامر

ولم يكن القصر الملكي من الفخامة والمتانة بحيث يستطيع الخالود على عمر الأيام ، وقد كان المصريون يشيدون القبور والمعابد على أن تخالد أحد الدهر أما القصور فقد كانوا يبنونها لأجل معلوم وقد كانت العادة أن الملك الجديد لا يقيم في قصر أبيه وإنما يأخذ في بناء قصر جديد يوافق مزاجه وذوقه ، فلم يكن فرعون يشيد قصره إلا لبعض في حياته القصيرة ودان عالماً بأن أنه إن تولى الملك يوم سوف يبني قصرًا حديثًا ، وعليه فقد كانت القصور تبنى من مواد بسيطة وتحاط بأسوار متينة ضخمة ، لأنه وإن كان فرعون ربماً معودًا إلا أن رعيته قد تهادى في أشد حالات العصيان والتمرد خطراً ولم تكن المكاييد ضد الملوك محولة

في ذلك الوقت فقد حدث لاحد الفراعنة الماضين ان هوجم وهو على فراش القيلولة ، واضطر الى الدفاع عن نفسه بمفرده وب Sidney ضد جماعة قوية من المتمردين ومن ذلك الوقت رأى فرعون أن يعتمد على أسواره الضخمة وعلى حراسة السرداينيين الأقوية وألا يجعل جل اعتماده في الدفاع عن نفسه هو وقوفا على الوهبة وعبادة الناس له . ويحيط هذا السور بحديقة غناة حافلة بأنواع الزهور والرياحين وفي وسطها بحيرة صناعية ماء طبيعية بأنواع الاشجار والشجيرات المختلفة وفي نهاية الحديقة يوجد باب ضخم يؤدي الى بهو الاجتماع العظيم وهو مزين بالالوان ومقام سقفه على أعمدة مزخرفة على شكل سيقان اللوتيس وعلى كل جانب من جانبي الباب توجد غرفة كبيرة ، وخلف بهو الاجتماع توجد غرفتان للاستقبال وهما أنيقة غرفتين في مصر كلها وخلفهما تأتي حجرات نوم أهل القصر العديدين

ولرمسيس زوجات كثيرات وله تبعاً لذلك جيش من الاولاد والبنات .
وغرفة نوم الملك متزلجة في جهة وحدها ومكملة بالزهور والرياحين
وكان « ابن الشمس » يمضي يوماً ملولاً بالاعمال المختلفة فكان عليه أن يطالع
كثيراً من الرسائل والتقارير ليصدر حكمه فيها ، و كان الامراء السوريون قد
أرسلوا للملك تقريراتهم عن تقدم جيوش الحيثيين وطلبوا معونته الملك لدفع
الخطر عن أنحاء ملكه الواسع

وقد عقد الملك العزم على ان يصدر تصريحاً بكل ذلك ومن ثم يتبادر المشورة مع قواد وبناء المملكة . وكان في احدى ، نواحي الباب شرفة خفية كان يظهر فيها الملك لشعبه ، وكانت وجهتها مرصعة بالجواهر والاحجار الكريمة .
وكان العادة ان الملك وبعض الاميرات والامراء يقفون بجانب الملك عند ظهوره للشعب

فتح أبواب الباب وتسرب اليه جماعات البلاء وحكام الاقاليم وقواد الجيش الكبار ومديرو الادارة ، وزاروها جميعاً ليقدموها فروض الطاعة لسيدهم ومولامهم . وفي لحظة اصطف الجميع في نظام وأدب وفتح باب كبير ، وفي الحال خسر الملك النظيم . ملك الوجهين البحري والقبلي . مصحوباً بزوجته واسرته

وَدَانَتِ الْعَادَةُ الْمُتَبَعَةُ قَدِيمًا فِي اسْتِقْبَالِ الْمُلُوكِ أَنَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَحْظَوْنَ بِعِقَابَةِ مَلِكٍ مِّنَ الْمُلُوكِ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَرْكِعُوا إِلَيْهِ سَجَدًا وَيَقْبِلُوا الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَقَدْ انْدَثَرَتْ هَذِهِ الْعَادَةُ آتَاهُنَّ فَلَا يَلْعُجُ حُبُّ الْمُلُوكِ وَاظْهَارُ الطَّاعَةِ لَهُمْ حَدُّ السُّجُودِ وَالرَّكُوعِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

لَا دَخَلَ فَرْعَوْنَ إِنْهُنِّ الْجَمِيعُ أَمَامَهُ بِاحْتِرَامٍ لَا مِثْلَ لَهُ وَرَفَعُوا أَيْدِيهِمْ كَمَا كَانُوا فِي صَلَةٍ دِينِيَّةٍ «لِلَّهِ الطَّيِّبُ» وَاتَّظَرُوا صَامِتِينَ مُتَهِيِّبِينَ حَتَّى يَبْدَا الْمَلِكُ بِالْكَلَامِ

وَصَوْبُ فَرْعَوْنَ نَظَرَهُ إِلَى الْجَمْعِ الْمُخْتَشَدِ أَمَامَهُ وَنَقْلَ بَصَرَهُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى آخَرٍ حَتَّى اسْتَقَرَ عَلَى قَائِدِ قَوَافِطِ طَيِّبَةٍ فَسَأَلَهُ عَنْ مَقْدَارِ اسْتِعْدَادِ جَيْشِهِ هُنَّا تَقْدِمُ الْجَنْدِيُّ بِاحْتِرَامٍ وَإِنْهُنِّ يَتَهَيَّبُونَ وَاجْلَالٌ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَفَوَّهُ بِكَلْمَةٍ فِي الْمَوْضُوعِ لَأَنَّهُ لَمْ تَكُنِ الْعَادَةُ أَنْ يَتَكَلَّمُ مَبَاشِرَةً ، وَرَاحَ يَلْقَى قَطْعَةً مَدِيجَ مَحْفُوظَةً تَشْيِيدَ بِعَظَمَةِ الْمَلِكِ وَشَجَاعَتِهِ وَأَقْدَامِهِ فِي الْحَرُوبِ قَاتِلًا أَنَّهُ ، حِيثُ تَجْرِيْ جِيَادُهُ تَفَرُّ أَمَامَهَا جَمْعَ الْأَعْدَاءِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى سُؤَالِ الْمَلِكِ وَعَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ تَقْدِمُ الْقَوَادُ وَالنَّبَلَاءُ وَالْمُسْتَشَارُونَ لِيَجْبِيُوا عَلَى الْأَسْئَلَةِ الْمُوجَّهَةِ إِلَيْهِمْ وَلِيَدُوا آرَائِهِمْ غَيْرَهَا يَبْسِطُ أَمَامَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الدُّولَةِ

وَلَا اتَّهِيَ الْاجْتِمَاعُ أَصْدَرَ الْمَلِكُ أَوْ أَمْرَهُ بِاعْدَادِ عَرَبَةٍ لِيَحْضُرَ حَفْلَةُ الْمَعْدِ الْدِينِيَّةِ ، وَخَرَجَ كَمَا دَخَلَ بَيْنَ صَفَوفِ سَاجِدَةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَغْرِقًا فِي عِبَادَتِهَا بَعْدَ ذَلِكَ رَأَيْنَا الْبَابَ الْحَصِينَ يَفْتَحُ عَلَى مَصْرَاعِيهِ ، وَخَرَجَتْ ثَلَاثَةُ مِنَ الْجَنُودِ رَافِعَةً الرَّماحَ ، ثُمَّ وَقَفَتْ عَلَى مَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْ بَابِ الْقَصْرِ . وَعَلَى أَثْرِهِمْ خَرَجَ الْحَرْسُ السَّرْدَانِيُّ مُشَقْلًا بِالْأَسْلَحةِ وَعَلَى رُؤُوسِهِمُ الْخُوذُ الْلَّامِعَةُ وَبِأَيْدِيهِمُ الدَّرَوْعُ الْمُتَبَنِّيَّةُ وَالسَّيُوفُ الطَّوِيلَةُ الْمُسْلُوَّةُ وَقَدْ اصْطَفَوْا عَلَى جَانِبِيِّ الطَّرِيقِ وَوَقَفُوا كَالْمَاثَلِيَّ مُتَرَقِّبِيْنَ ظَهُورَ فَرْعَوْنَ

وَسَمِعْنَا أَصْوَاتَ بَعْلَاتٍ . وَظَهَرَتْ أَمَامَنَا عَرَبَةُ فَرْعَوْنَ وَهِيَ تَسِيرُ بِهِ شَطَرَ طَرِيقِ الْمَعْدِ . وَقَدْ سَارَتِ الْجَنُودُ الرَّافِعُونَ الرَّماحَ فِي الْمُقْدَمَةِ أَمَّا السَّرْدَانِيُّونَ فَقَدْ جَرَوْا بِحَذَاءِ عَرَبَةِ الْمَلِكِ عَلَى كُلِّ مِنْ جَانِبِهِمْ . وَلَمْ يَتَأْخِرُوا عَنْهَا قِدْ شَرَعَهُ رَغْمَ تَشَلِّهِمْ بِالْأَسْلَحةِ

وما أن رأت الجموع المزدحمة عربة الملك ووقدت أبصارهم على فرعون حتى سجدوا على الأرض ومسوا التراب بجباهم . وفرعون ينظر أمامه لا يلتفت يمينه ولا يسرا . وكان واقفاً متتصباً لا يتبايل ولو قليلا رغم اهتزاز العربة الشديد . وكان ممسكاً بيده عصا معقوفة وسوطاً وها الرمز الملكي المصري وعلى رأسه خوذة الحرب . وفي الجهة الامامية من هذه الخوذة أفعى مكونة قبة عالية بعدة لفات حول نفسها . وكان شكلها مخيفاً كأنها تهدد اعداء مصر . وكان يزين طاشه الجميلة بلحية مستعارة . ويغطي جسمه القوى الجميل بشوب من الكتان الا يضوح وسطه نطاق ذهي تصل أهدابه إلى ركبتيه وفي طرفيه حيتان مزخرفتان ويجرى بجانب العربة حاملو المراوح من ريش النعام يحركنها في اثناء جريهم دون ان يضطربوا لذلك . ومهارتهم تدعو للإعجاب والدهشة . ويتنسم عربة الملك عربات الحاشية وهي على العموم أقل خفامة وعظمة من عربة الملك . وقد جلست في العربة الاولى الملكة ويدها زهرة اللوتين الجميلة يتضوئ شذاها

أما الذين في العربات الأخرى فلهم أمراء يحرى في عروقهم الدم الفرعوني وقد شاهدنا بينهم الامير الساحر « خامواس » وكان أعظم ساحر في مصر ومن معجزاته قدرته على استحضار الاموات من القبور . وكان الناس يحفلون أمام بصره الحاد ويتهامسون فيما بينهم وبين أنفسهم بأن درج البردى الذي يضممه إلى صدره كان قد أخذه من قبر ساحر من ساحري الأيام القديمة وفي دقائق معدودات مر الموكب بعد ان يهر الانظار بفخامته وبالأشعات المنكسة على أسلحته وجنوده والجوادر التي على أفراده العظام وجرت خلفه الجموع الغفيرة نحو معبد الكرنك

لقد رأيت في لحظة أعظم رجل على ظهر البسيطة والظالم الجبار المذكور في قصة بي اسرائيل . كم كان قوياً وكم كان خوراً !

وطبيعي أنه لم يكن يحمل بأن - اليهودي الصغير الذي تبنته ابنته - والذى ترقى بجامعة الكهنة بهاريو بوليس . سوف يذل مصر في يوم من الأيام ويبدل عزها هواها . وان اسم فرعون العظيم لم يكتب له الخلود وذيوع الصيت إلا لأنه اقترب باسم « موسى »

الفصل الخامس

حياة الجندي

إنك إذا اطلعت على ما كتب عن المصريين في الكتاب المقدس خيل إليك أنهم أمة حرب وطعان وأنهم لم يوجها همهم لشيء في الحياة فالحرب والغزو، وحقاً لقد حاربوا طويلاً واتصروا كثيراً واستطاعوا بذلك أن يكونوا أمبراطورية عظيمة لم تصغر في شأنها عن أي أمير طورية قامت في العهد القديم، ولكنهم لم يكونوا ماليين بطبعهم وسجيتهم إلى الحرب والقتال ولم تكن روح المصري مفعمة بذلك الميل الغريزي الذي يدفع صاحبه إلى القتال في أي فرصة ويسبب له من السرور والحبور - في اثناء القتال - ما لا يمكن تصوره عقل الإنسان أي أحدهم لم يكونوا مثل أعدائهم الآسيويين والبابليين ونحن الذين قدرنا أن نتصل باحفادهم - المصريين الحدثيين - وان يكون بيننا وبينهم من الامر ما هو معروف نعلم حق العلم ان المصري ينفر من الحرب فهو را شديداً ولقد تحققنا من ذلك في اثناء حروتنا معهم وضدهم نعم قد يظهر الجندي المصري مهارة خاصة ويسلي بلاه حسناً إذا قاده إلى القتال قراد ماهرون ولكن مع ذلك يختلف عن السوداني الذي يقاتل حباً في القتال المصري يؤثر عيشة السلام على الحرب وليس اشهى لديه من الاقامة في حقله بين اسرته وقطعاً يزرع الارض ويرويها ، هكذا المصري وهكذا كان آباءه واجداده ، ولكن إذا أمر فرعون بالحرب فلا يوجد من يتزدد في طاعة أمره ، هنالك يحاربون تحت قيادته ويبلون البلاء الحسن ، ولكن طول الوقت لا يشغل ناظم مثل وطنهم والحنين إليه وكم تكون سعادتهم عظيمة إذا انتهت الحرب وازف وقت الرجوع إلى الوطن ومسراته المادلة البسيطة وعلى العموم كانوا شعباً مسلماً رحيمياً ميلاً للسرور والأخذ بأسباب المسرات ولا تجد بينهم فظاً غليظاً كما تجد بين الآسيويين

وفي الحقيقة كان المصرى لا يرضى لنفسه ان يحترف الجنديه لانه كان يعتقد انها عمل مؤلم لا يختلف عن « الاعمال الشاقة » ففيها يتعرض الجندي لكل انواع الذل والمهانة ولا تظن ان سوء ظنه هذا بالجنديه كان على غير الحق اما مايرجوه في الحياة فهو أن يفوز بعمل ذاتي عند أحد الاغنياء أو في مصالح الحكومة يكتب التقارير ويحسب الحسابات ولما لم يكن في الامكان ان تتسع الوظائف لجميع الشبان فقد كان الاب الذى يتمكن من توظيف احد ابنائه اسعد الآباء ولو انه من المحتمل جدا ان يحقره الابن ويترفع عن الالتساب اليه والى اخوته الذين يزرعون في الحقول او يخدمون في الجيش

ولدينا الان كتاب قديم كان ذاته جنديا ثم رقى الى ضابط فى الادارة السيليسية كتبه لشاب صغير مبينا له آرائه عن الجنديه محدرا اياه أن يتخذها منه مسبقة . وكان الشاب ولو عا بأن يكون في احد الايام من جنود العربات وهم الذين يقابلون الفرسان عندنا اليوم ، وكان يقف في العربة جندياً واحداً يسوق ويقود الجياد والآخر يحارب بقوسه وفي بعض الاحوال بالسيف أو الرمح

وقد قال له أن فرسان العربات ليسوا احسن حالاً من بقية الجنديين ، وقد يظهر العمل لقليل الاختبار جداً جداً جيلاً . فلا يركب الجندي العربة حتى يظن أنه ملكاً على الأرض كلها ثم يذهب إلى أهلها بملابس الجنديه خورا مختالاً ولكنها معرض دائماً لأشد انواع العقوبات واقساها إذا ارتكب أقل الاخطاء وأهونها ، فإذا جاء يوم التفتيش ووجد أن أحد الجنود مقصراً أقل تقدير أو أن أحدي معداته بها خلل لا يذكر فإنه يطرح على الأرض ويضرب بالعصى ضرباً مبرحاً حتى يشرف على الملائكة من شدة الألم ، ويؤكد للشاب أن هذه الحالة التي وصفها تعد خيراً بكثير من حالة الجنود العاديـة ، فانهم كانوا يجدون في ثكناهم لاي هفوة تصدر منهم ، ثم انهم يتکبدون اشد المتابعـ في اثنـ الحروب فيـرون إلى سوريا الايام الطوال والأرض تأكل اقدامـهم التي لم تلمس إلا الأرض مصر الليـنة . وكانوا يحملـون معدـاتهم ولوـازـهم وآلاتـ القـتـال وبـالـجـملـة فقد كانوا يـنوـون تحت حـلـ تـمـيلـ ، وـلـتـيرـا ما كانوا يـضـطـرـونـ إـلـىـ شـرـبـ المـاءـ الـقـدـرـ فيـ اـثـنـاـ اـجـتـياـزـهمـ الصـحرـاءـ غـيرـ مـبـاـيـنـ بـماـ قدـ تـسـيـهـ لهمـ مـنـ الـأـمـراضـ ، وـهـمـ الـذـينـ يـقاـتـلـونـ الـأـعـدـاءـ

معرضين انفسهم للموت واجسامهم للتلف بينما يجلس القواد في أمان وسلام . فإذا انتهت الحرب عاد الجندي منهم إلى بلده مثخنا بالجراح مهدم البنية ، مسلوب الملابس ، وذلك لأن النويين الذين يحرسون الامتعة يتnezون فرصة اشتباك الفريقين في القتال ثم يسرقون الامتعة ويلوذون بالفرار وختم الكاتب كلامه بأن قال « خير من كل ذلك أن تخثار لنفسك مهنة كهنة الكتابة، وتعيش سعيداً في وطنك »

واستطيع أن أقول أن كلام هذا الكاتب صحيح وهذه الحالة التي كانوا يشكون منها قد يما لا تزال على ما كانت عليه إلى الآن ، ولكن رغمما عن كل ذلك فقد استطاع فرعون أن يجمع الجيوش الجرارة في وقت الخطر ولم يكن الجيش المصري كثير العدد مثل الجيوش التي نسمع عنها الآن أو التي نقرأ عنها في كتب القدماء ، فالجيوش التي قادها الفراعنة إلى ارض سوريا لم تكن تزيد على العشرين أو الخمسة وعشرين الفا ، ولكن الغريب ان يكون الجيش - وهو على هذه القلة - كثير الجنسيات مثل جيشهنا الموجود في الهند

وامه فرق الجيش هي فرق الوطنيين من رماة القوس ورجال الرمح ، ويحمل الاولون الاقواس والسيام وهم أخف حلا من رماة الرمح الا انهم اشد خطراً فان المصريين اشتهروا بالمهارة في الرماية مثل الانجليز القدماء وقد كانوا سبب انتصار فرعون في كثير من الاوقات . اما الآخرون فيحملون الرماح والدروع وفي بعض الاحيان الفرس والخناجر أو السيوف القصار

وهنالك فرقة من جنود العربات وهم من المصريين ايضاً ويعبرون ارق درجة من المشاة ، ولم تكن مهمة حندى العربة من الامور السهلة فقد كان عليه أن يحفظ توازنه وار يصيب عدوه في اثناء جرى الخيول وسير العربة ولا يخفى ما في ذلك من الصعوبة وما يحتاجه من المران والغبات . وكانت خيول العربات تزين اجمل زينة

وفي كثير من الاحيان إذا خان الحظ الجندي المقاتل الموجود بالعربة يعمد الآخر « السائق » إلى مساعدته ، فيلتف عنان الجنود حول وسطه ويتبدىء في الطعان على أن يضبط الخيول بما يليل ذات اليمين وذات اليسار

ويحيط بعربة فرعون الحرس الملكي وكان مكونا من رجال يدعوهם المصريون « أرشدن » أو السرداين ومن المحتمل أن يكونوا من القوم الذين اتوا مصر من جهة البحر ليترزوا من الخدمة في الجيش . و كانوا يضعون على رؤوسهم الخوذ المعدنية ذات القرون و حول صدورهم الدروع القوية ، وبأيديهم السيوف الطويلة

وخلف هؤلاء تسير الجند المرتزقة وهم فرق سودانية على أجسامهم جلد الحيوانات المفترسة ، وفي المؤخرة جنود ليبيون من البدو ويسبق الجميع في اثناء الحرب فرق الكشافة يستطلعون الاخبار و يتبعسون على العدو ويمدون جيوشهم بالاخبار

وكان للملك حارس خاص به هو اغرب حارس في العالم القديم والحديث لأنه كان ابدا مستائسا ، درب لخدمة سيده والدفاع عنه باستاته ومخالبه إذا هاجمه عدو أما مهام الجيش فكانت ترجم على ظهور الحمير ويرقبها الحمالون ، وكان المصريون من اعظم الناس احتمالا لمشقات السفر والمشى حتى ولو كان تحت اشعة الشمس سوريا الحمراء وخلال طرقها المجهولة ، كانوا يسيرون خمسة عشر ميلا يوميا لمدة اسبوع دون ان ينهيهم التعب ، والآن سأروي لك قصة جندي حدثت في معركة من « اه » ، معارك التاريخ

كان مينا من امهر راكبي العربات في الجيش المصري ، وقد ساعده نبوغه على الترق والتقدم مع حداة سن حتى اختير ليكون سائق عربة فرعون نفسه لخارج الجيش من زارو « حصن مصر على الحدود » ليحارب جيوش الحيثيين في شمال سوريا

ولقد سار الجيش مسافة طولية مخترقا الصحراء ثم اراضي فلسطين عابرا الجبال ولم يظهر للعدو اثر ، وكان مينا موجها اهتمامه لقيادة الخيل وإدارة العربة وابدا الجيش ينحدر الى وادي الاورت في اتجاه قادش ، وقد تسربت الكشافة الى جميع اتجاهات ، ومكث الجيش ينتظر قدوم العدو وقد ساوره القلق وكانت قادش ترى على مرى البصر . وقد ظهرت في الافق قمم ابنيتها وانعكست في الفضاء اشعة النسق المنعكسة على سطوح انهارها وسطح الخندق المحيط بها .

وكان السهل الممدود بين الجيش المصري والبلد الراحفل عليها خاليا من اثر الانسان بما زاد في دهشة الملك وقلق جنوده ، وجاءت الكشافة بالاخبار وأعلم الملك بأن جيش الاعداء تقدّر الى الشمال من الخوف والفرق فظن الملك انه مستول على المدينة بلا عراك ، ثم أسرع بتقسيم الجيش الى اربعة فرق وقد الفرق الاولى وسار بها نحو قادش بحراً عظيمة وبلا رؤية او تدبير بعد أن امر الفرق الأخرى باللحاق به على ألا تبدأ فرقه بالمسير الا إن ابتعدت منها الفرقه السابقة لها مسافة معلومة

ووصلت الفرقه الاولى يقودها فرعون إلى شمال غرب قادش وعسكرت هناك بعد أن أنهكتها الain والكلال وأخذ منها التعب كل ماخذ ثم رفعت الانقال عن ظهور الحمير لتأخذ قسطها من الراحة وإذ كانت الكشافة تجوب الجهات المختلفة ل تستطلع اخبار العدو عثرت في طريقها بعربتين فقبضت عليهما وسارت بهما الى المعسكر وقدموها الى فرعون وأمر الملك بضرهما بالعصى حتى اعترف البائسان بأن ملك الحيثيين متى في الجهة المقابلة لمعسكر المصريين وأنه يتربص الدوائر لينزل باعدائهم هزيمة مركزة وأسرع الملك فانجى باللامنة على جنود كشافته واتهمهم بقلة التبصر والتسرع في نقل الاخبار ، واصدر الأوامر بالتأهب للمسير ولكن قبل ان يقفز الملك الى عربته - التي هيأها مينا للرحيل - دوت في الفضاء صوضاء مزعجة عند باب المعسكر ورؤيت الفرقه المصريه الثانية مشتبهه الشمل ضائعة اللاب . وهي تفر امام جيوش الحيثيين الجراره . وعرباتهم البالغه خمسة وعشرين الفا والآخرون يقتلون فيهم ويأسرون

انتظر الملك في عباه حتى وصلته الاخبار من جواسيسه بمعسكر الفرقه الاولى ولما درى بقدوم المرة الثانية امر بالهجوم عليها دفعه واحدة ولما كانت الفرقه مهوكه القوى من مشقة السفر لم تستطع المقاومة والثبات واتهى الأمر بغرارها وانتصار الحيثيين عليها . وقد احدث ورارهم - ما هم عليه من تعب و بواس - خوفاً عظيماً في معسكر فرعون سرى في نفوس الجميع فصر سوادهم مع بقية أفراد الفرقه الثانية ولم يبق لمقاومة الاعداء إلا فرعون وبعض افراد العائلة الذين ابى

شجاعتهم ان يسلوا للخوف ويولون الأدبار
ومع ما اظهره رمسيس من قلة التبصر وضعف النظر في قيادة الجيش الا انه
أبدى شجاعة نادرة وبسالة لامثيل لها

فبعد ان قفز إلى عربته امر اتباعه المخلصين باتباعه وأمر مينابسوق العربة للقاء
الاعداء. ولم يكن مينا جبانا ولكنه مارأى عربات المصريين التي تعد على الأصابع
ثم شاهد عربات الاعداء التي لا تعدد ولا تحصى شعر بالرغم منه بالخوف ببر قلبه.
ومع ما احتاج في نفسه من الخوف لم يفكر لحظة في الهروب أو العصيان ولكنه
وهو يميل إلى الامام ليقود الخيال همس في أذن فرعون « ياقوطة مصر العظيمة في

م الحرب . انقذنا » فاجابه « الثبات .. الثبات . سافرس جموعهم كالباز »
وفي الحال سابقت جياد الربيع قاصدة جيوش الاعداء وكان لا يندفعها
غير المستظر أثره في نفوس الحبيبين . حتى ان فرعون واتباعه اخترقوا الصدوف
وغاصوا في لجتها وكان مينا منهمكا في عمله حاصرا عقله فيه غير مبال بما قد يصيبه
من الآف السهام المتطايرة في الجو وكان فرعون يقاتل بمهارة منقطعة النظير وكان
قوسه يرسل السهام باستمرار فتصيب مقاتل الحبيبين وتصر عليهم من عرباتهم . وكذا
فعل الامراء الذين كانوا يتبعون فرعون وقد ترددوا خلفهم صفوفا من القتلى
والجرحى

وهكذا استطاع فرعون ان يفتح ثغرة من صدوف الاعداء ولكنهما كانوا
جموعا زاخرة يزيدون عليه وعلى اتباعه الآف المرات . وكانت بعض العربات
المصرية قد اتجهت جهة الجنوب لتأتي بنجدة من جنود الفرقتين ولكن
كان يلزم لوصولها مضى وقت غير قصير

وكان ما يزيد الحالة حرجا أن ملك الحبيبين على رأس جيش يبلغ المئانية آلاف
كان معسكرا على شاطئ النهر الآخر ولو أنه اسرع بعبور النهر لقضى على رمسيس
ومن معه ، ولم يبق امام فرعون الا القتال فقاتل بشدة هو وجنوده واستطاع
بمهارته ان يجعل بعض عربات الحبيبين يتبين وبين النهر وامن بذلك شر نبال الجنود
المعسكة على الشاطئ الآخر وبعد فوات زمن غير قصير ظهرت طوالع الفرق
المصرية وفي الحال انضموا الى إخوانهم راخد الفرق بين الحبيبين يقل نوعا ما عما
قبل ، وكانت جمعة الحصريين قد دخلت من السهام فسلوا السيف واطلقوا الرماح
وهنا حمى وطيس القتال راخد الاعداء في التقهقر صوب النهر ، وقد وقف ملك

الحيثيين على الشاطئ، الثاني من النهر مندهشاً لما رأه أمامه ! وقد فات الوقت لعبوره النهر واشتراكه في القتال إما الآن فلم يكن في الامكان عبور النهر لامتنان الشاطئ الآخر بعربيات الحيثيين وجنودهم بما لم يدع مكاناً لجنود جديدة وما زاد في فرح المصريين وقوى سعادتهم وحصول الفرقة الأخيرة ، وأسرع بقدومها الملائكة إلى جنود الأعداء وأخذوا يتسلطون في النهر. وكانت مذبحة عظيمة وانتهت بهروب الأعداء ، وقد رصد لهم رماة القوس من المصريين برمونهم بسهامهم فيقتلون منهم من يقتلون ويجرحون من يجرحون . وقتل من الحيثيين شقيقاً الملك ورئيس حراسه ، وأعظم كتابه وحامل درعه أما ملك الحيثيين فقد سقط في النهر وهو يختار مخاضة فيه وقاد بعوت غرقاً لولا أن رمى أحد أتباعه بنفسه في الماء وأنقذ الملك من يد الملائكة المحقق ، فترك ميدان القتال بعد أن ضاعت من يده فرصة عظيمة للقضاء على عدوه اللدود وآب بالفشل والخذلان

وبعد انتهاء المعركة دعا فرعون قواد الجنود أمامه ، وقد وقفوا متباذلين تعلو وجوههم حمرة الخجل لما بدر منهم من دلالات الجنين في بادي المعركة أما فرعون فقد خلع عن رقبته الملكية طوقاً ذهبياً ووضعه حول رقبة تابعه الأمين مينا ثم وبخ قواده عن تركهم له ليواجه الأعداء بمفرده وفرارهم جنباً وخوفاً ثم حدثهم عن مينا وكيف أنه لم يتركه ساعة الخطر وختم الحديث بقوله « ولا أنسى جوادي عربتي وسوف يتناولان طعامهما يومياً - أمامي - في السريري الملكي » ولما كان الجيشان قد خسرا خسارة عظيمة وأخذ التعب منها كل مأخذ فقد تعذر عليهم ماواصلة القتال وقبلًا عن رضاه خاطر المدنة ، وانسحب الحيثيون إلى الشمال ورجع المصريون إلى وطنهم ، ولم يربعوا شيئاً رغمما بذلوه من جهد وأبدوه من بسالة ولكن فرحمهم بالنجاة من الملائكة المحقق أنساهم ما خسروه . وكم كان مينا نوراً وهو يسوق عربة الملك داخل أسوار « زارو »

وسار الجيش بين جموع الشعب التي أتت لاستقباله رانث الورود على جنوده و كانوا من جميع الطبقات فيهم الكاهن والتاجر والنيل ولم يكن يوجد بعد رميس الذي أنقذ جيشه ووطنه وشرفه من يستطيع ان يفتخر بعمله مثل مينا الذي وقف بجانب سيده في أشد حالات الخطر

الفصل السادس

حياة الطفل

كيف كانت حياة الاطفال في تلك الارض القديمة منذ هذه الآلاف من السنين ؟
ماذا كانوا يضعون على أجسامهم من الملابس وما هي أنواع اللعب التي
كانوا يغرسون بها وما هي العلوم التي كانوا يدرسونها ؟
لو أنك كنت من أحياء مصر في ذلك العهد القديم لتبييت ما بين حياة طفلنا
الآن وبين حياة الطفل القديم من تباين ، ولا ينفع ذلك من ذكر أوجه التشابه
بين أطفالنا وأطفالهم

كان الصبيان والبنات صبياناً وبناتاً كما هم الآن ، لاختلف تصرفاتهم عن
تصرفات أطفالنا ولا نفترق العابهم — تقريباً — عن العابهم
أنك لو تقرأ بعض القصص الخرافية تجد ان للاصي الصغير فيها « جدة خرافية »
تحوم حوله أثناء الليل وتثير فراشه وتهديه المداعيا وتنبأ له عن المستقبل ، وهذا
كان في الازمنة القديمة ، فكان إذا وندت « تاهوقي » الصغيرة أو « سن سنب »
في طيبة قبل الميلاد بآلاف السنين ، وجدت لها « جدة خرافية »، تنبأ لها بالحوادث
والمستقبل ، وكان في مصر طائفة يطلق عليهم المصريون اسم « هافورز » ليس لهم
من عمل الا التنبؤ عن المستقبل وكان عهد الطفولة أطول مما هو الآن ، فكان على
الام السعيدة ألا تترك طفلها يغيب عن ناظريها ثلاثة سنين متوالياً فتحمله على
كتفها أينما توجهت

وإذا مرضت الطفلة ودعت أمها طبيباً فإنه يصف لها من الأدوية ما يختلف
عن أدويننا كل الاختلاف . فلم يكن الطبيب المصري يعرف الشيء الكثير عن
الامراض والادوية وهو لجهله هذا كان يجرع مريضه أقدر ما عرف الانسان من
جرعات الادوية . ولا أظن أنك ترضى ببلع حبوب مصنوعة من عصير مياه

أذن الخنزير ودماء الضب ، ولحمة قدرة ، ونان الطبيب اذا فحص المريض كثيراً ما يقول « ليس هذا الطفل مريض انما هو مسحور » وعلى ذلك يكتب هذه « الوصفة »

« علاج يق من السحر »

خذ خنفساء كبيرة ، واقطع رأسها وجناحيها ، ثم اسلقه وضعه في زيت واتركه بعد ذلك ، واطبخ أجنحته ورأسه واسق الخليط للمسحور ، وأظن ان القارىء يقرر عذاب السحر علىأكل مثل هذه الوصفة ، وفي أحيان أخرى يكتفى الطبيب بكتابة كلمات سحرية غامضة على ورقة قديمة يربطها بالعضو الموجوع وكان كثير من الامهات — إذا ظهرت على أطفالهن أعراض مرض — ظنن ان عفريتا يزعج الأطفال ، فإذا صرخ طفل من ألم المرض قامت أمه وجانبت أنها الغرفة وهي تقرأ هذه الكلمات : مخاطبة الشيطان

هل أتيت لتقبيل الطفل ؟ لا أسمح لك ان تقبله

هل أتيت لتهذئة خاطره ؟ د د د أن تهدئه خاطره

هل أتيت لتوذيه ؟ د د د بأن تؤذيه

هل أتيت لتخطفه مني ؟ د د د أن تخطفه

فإذا برىء الطفل من مرضه وذهب عنه العفريت خرج ليلعب . والطفل وأخته يست Jian كل صباح ولكن لما كان الجو حاراً عظيم الجفاف لم يحتاجا للملابس التي تخطى الأجسام فكما يلعبان عرايا إلا ما يستر عورتهما

وكان أدوات لعب الأطفال كثيرة الشبه بأدوات أطفالنا الآن ، فكان تاهون يلعب جل خشبي إذا شد فتيلة متصلة بوسطه وذراعيه ، انحني مثل الخباز وكان يلهو أيضاً بتمساح إذا ضغط على ظهره ففتح فاه . أما الطفلة فكانت تلعب بعرس مزخرفة وبرادمة لها نوبية ، وفي كثير من الأحيان كانا يلعبان الكرة مع بعضهما هكذا كان يمضى الطفل الاربعة سنين الأولى من سني حياته فإذا تجاوزها أرسلوه إلى « الكتاب » ويظل تاهون عارياً إلا من هذه القماشة التي تحيط بوسطه وهو في المدرسة كما كان وهو في البيت ، أما شعره الاسود فيضفر ويرسل من فوق أذنه اليمنى

ويبدأ بتعليميه القراءة والكتابة ، ولم يكن ذلك أمراً بسيطا الا ان الكتابة المصرية وان ظهرت في شكل نديع يثير الاعجاب والدهشة اذا سمعتها يد ماهرة متعرنة ، فان تعلها أمر من أشق الامور ، خاصة وان المبتدئ كان عليه ان يجيد كتابة أسلوبين مختلفين ولا أظن أنك لو طالعت في كتب — أمليت في عهد قديس للتلاميذ — تعثر على شيء عظيم الاهمية ، ولدينا الآن عدة كتب مصرية عملاة أو منسخة من كتب أخرى وقام بنسخها التلاميذ أثناء تمريرتهم على الكتابة ومن هذه الكتب يتبيّن لنا بوضوح ما كان يغرس بقراءته قدماء المصريين ، لأن، هؤلاء التلاميذ كانوا يكتسون كلمات حكمائهم وبعض القصص القدمة أثناء تمريرتهم على إجاده الخط . هذا ما نفهمه من هذه الكتب التي كلفت كتابتها من المشقة والعناء مالا يحتمل به كاتب الان ، ولما كان المدرسون المصريون يعتمدون على العصاف تأديب التلاميذ وتعليمهم فكثيراً ما كانت تاهو في الصغيرة تذرف الدموع وهي في المدرسة . وكان التلميذ المسكين ينتظر يومياً « الجلد » كما ينتظر الطعام الذي تحضره له أمه ، وكان مدرسه يقول له « أذنا الطفل فوق خداه ، وهو يصغي جيداً كلما ضرب » ،

وقد كتب تلميذ الى معلمه القديم بعد ان ترك المدرسة بدة طويلة يقول
« كنت تحوطني برعايتك أثناء تربيتي وتعلمي وأنا طفل صغير ، ولقد ضربتني
عصاك على ظهرى فرسخت لها تأثرك . في أذنى »

اما إذا كان الطفل عنيداً فإنه يعاني أنواعاً من العقوبات يهون بجانبها ضرب العصا ، فلقد كتب تلميذ لمعلمه « لقد كنت شديداً على وأنا تلميذك ، وإن
لأزال أذكر ثلاثة أشهر قضيتها في المعد عقاباً لي » ،

وكان وقت العمل المدرسي نصف يوم يخرج بعده التلاميذ الى منازلهم وهم
يصححون من الفرح والسرور . ولم تتغير هذه العادة رغمما عن طول ما يبتداها وبينهم
من الزمن

ولا أظن أنهم كانوا يقومون بعض الواجبات المدرسية في منازلهم
وربما كان وقته في المدرسة أقل غطاء مما تخيل عنه بسبب ما ذكرنا من
وصف عقوباتهم

و اذا اكابر «سن سب» عن ذلك قليلاً و اتقن اصول الكتابة يطلب معلمه منه — على سبيل الامتحان — أن ينسخ له عدة صحائف من خيرة الكتب المصرية ، و كان غرضهم من ذلك ان يتقن الناشئ كتابة الخط و لينمى ملحة انشائه فكان ينقل من كتب شعرية أو دينية أو من الاساطير ولم يكن هم المعلم من إملاء تلبيذه القطعة أو أمره ببنقلها من كتاب أو نحوه ان يحسن خطه فقط و إنما كان يأمل فوق ذلك ان يشفف عقله و ينير ادراكه بالافكار السامية

لذلك كان يختار موضوعات مفيدة مثل «نصيحة ملك لابنه» و غيرها . وفي بعض الاحيان كان المعلم يكاتب تلميذه كما لو كانوا أصدقاء فرق بينهم الدهر و تعلم الحساب لحسن الحظ لم يكن يستوجب حفظ قواعد كثيرة . وعلى العكس كانت قواعده محدودة . فيبدأ المعلم بتلقين التلميذ مبادىء الجمع والطرح والضرب والطريقة التي كانت حينذاك عقيمة وبطيبة أما القسمة فلم يكن التلميذ يتعلمونها ليس لسبب الا ان المعلم نفسه كان يجهلها و كان التلميذ يتعلم شيئاً عن قياس مساحة الاراضي بطريقة بدائية عقيمة ، و ينتهي تعليمه الاولى اذا أتقن ما قدمنا من العلوم

بعد ذلك يتعلم ما يتوهله لعمل يسترزق منه في المستقبل . وإن أراد التلميذ ان يعمل ككاتب عادى ، لا يحتاج للاستزادة من العلوم عما قدمنا لأن عمل الكاتب الصغير لا يخرج عن القراءة والكتابية والحساب ، أما ان كان في نيته ان يكون ضابطاً في الجيش فلا بد له من الالتحاق بالمدرسة العسكرية

ولكي يكون كاهماً . كان يلتحق بجامعة معبد من معابد الارباب حيث يتلقى — كما كان موسى يتلقى — كل ما انتجه العقل المصري في مختلف العلوم ويقرأ كتب الدين التي تبحث عن الآلهة والتي تكشف النقاب عن سر الحياة بعد الموت وعن المكان التي تحل فيه الروح بعد ان ترك أجسامها الفانية ونحن نحمل بعد ذلك ما لو كان التعليم يتناول تقويم الخلق واعداد الشاب للحياة الاجتماعية أم لا ، وكل مانعلمه أنهم ذابوا يعتنون عافية خاصة يتخرج الطفل ويعودونه على احترام السكارافلا يجلس وهم واقفون ولا يدخل بأدبه ووقاره

أمامهم ، وعلى رأس هؤلاء الواجب احترامهم وتبجيلهم يضع الطفل والمديه وخاصة أنه لأن المصريين كانوا يخضون أمهاطهم باحترام لا يطعم فيه كائن آخر . ولذلك أبين ذلك أنقل للقارئ نصيحة من أب لابنه قال

« يجدر بك الا تنسى ماتتكلفته أملك من المتابع من أجل راحتك وتربيتك فلقد حلتكم في بطنها وغذتكم صغيراً ، ولم تترككم أبداً ، تم تعهدكم بالتربيه والتقويم ثلاث سنوات واحاطتك بعين العناية والرقة . ولما دخلت المدرسة لتتعلم من موارد العلم ، كانت تحضر لك كل يوم غذاءك من الخبز والجعة فان أهميتها بعد ذلك حق عليك لومها ، وان الرب ليس مع شوكواها ويستجيب دعاها ، ور بما كان أبناء اليوم لا يعملون بهذه النصائح التي بقيت لنا في أقدم كتب في العالم

ولكن لأخالك تظن أن حياة الطفل المصري لم تكن الا تربية وتعلمه ففي أثناء العطلة تذهب العائلة المصرية إلى الغابات لتمضية يوم في صيد الأسماك أو صيد الطيور ، فإذا كانوا قد اصيدهم صيد الأسماك أرسلوا في الحال قاربا من قصب البردي ثم حركوا بمجادفهم وهم مسلحون بالحراب ، وكانت حرارة الصيد ذات ثعبتين من الامام . وكانوا إذا رأوا الأسماك في باطن مياه البحيرات الماءة الصافية صوبوا نحوها الحراب ليصطادوها ، وان ساعد الحظ فقد تصطاد الحربة سمكتين ، سماكة في كل شعنة

أما صيد الطيور بين المستنقعات فاجب من ذلك بكثير . وفي هذه الحالة لا تستعمل الحراب وإنما يتسلحون بعضى مقوسة تستعمل المرمية ، ويستصحرون معهم مساعدا غير مألف

في هذه الأيام ، يستصحب الصائد معه كلباً يدربه على احضار الصيد الذي يسقط من رشاش بندقيته وكان المصريين كذلك كلاب يستعملونها في صيد الحيوانات أما في صيد الطيور فكانوا يدربون القطط بدلاً من الكلاب

يسير القارب بهم في المستنقع بين الغاب الكثيف حيث يعيش البط وغيره من الطيور المائية ثم يقف في جهة تخفيه عن عيون الطير

فإذا طارت بطة أو أوزة صوب الاب أو ابنه نحوها عصاة وأطلقها بمهارة فإذا أصابت المدف ووقع الطير جرى نحوه القط وأتى بهالي سيده من بين الغاب وكان فرح الأطفال بالصيد عظماً ولم يكن أذندهم من وجودهم في القارب ينظرون طيران طائر ليصطادوه . وأنه وإن لم يكن يعرفون من ذنون الآباء ما نعرف الآن إلا أنهم فرحوا بما دان بين أيديهم كما نفرح . أ بین أيدينا

الفصل السابع

بعض الاساطير

كان الأطفال ذوو الوجوه السمر الذين يعيشون في مصر منذ ثلاثة آلاف سنة مغربين مثل أطفالنا بالقصص التي تبدأ بـ « يحكى أن » وساقص عليك الآن بعض القصص التي كانت تحكي لنا هوني « ورسن سنب » إذا خيم الليل وإذا اتهيا من عملهما المدرسي ولهوها

وهي أقدم قصص خرافية ولو أنها منسية الآن ، وقد اخترعت قبل أن يذكر أحد في كتابة قصة « جاك » و « بستانوك » بقرون عديدة

في ذات يوم دعا الملك خوفو « وهو الذي بنى هرم الجيزة الأكبر » أولاده وعلقاه على كتنه ثم قال لهم « هل فيكم من يستطيع أن يروى لي قصص قدماء الساحرين ؟ .. » وهنا وقف الأمير بوفرا - ابن الملك - وقال « مولاي - سأروي لكم قصة غريبة حدثت في عهد الملك سنيفرو أيكم العظيم »

فقد تضايق الملك بما وشعر بالسم والضجر ولم يجد ما يفرج به عن نفسه الملل ، وأخيراً قال لضباطه « احضروا إلى الساحر » زازاما نخ ، فلما مثل بين يديه قال له الملك « أيها الساحر زازاما نخ ، لقد بحثت في جميع قصرى فلم أجده ما يذهب عنى الملل »

فقال الساحر « تفضل يا مولاي بالركوب في القارب ودعه يسير بنا في بحيرة القصر ومر باحضار عشرين فتاة ليحركن المجاديف ، وركب في القارب مجاديف من البنوس المرصع بالذهب والفضة ، ولا بد أن تفرج عنك يا مولاي بالنظر إلى طيور الماء وشواطئ البحيرة الجميلة والخشائش الخضراء وتعيد نفسك سرورها » وركب الجميع في السفينة الجميلة التي سارت بهم في بحيرة القصر ، وكان على كل جانب من جانبي السفينة تجلس تسع فتيات يحدفن . أما الآثنتان الباقيتان

وكاننا أجمل الفتيات فقد جلستا في مؤخر السفينة بجانب الدفة ، وأخذنا يتشدآن لحنا خاصا للتجديف ، وابتدأ السرور يعاود الملك كلما توغل القارب داخل البحيرة وكانت المجاديف ترتفع في الهواء وتغوص في الماء على نغم الفتاتين الجميلتين ولكن حدث أن مجداف أحدى الفتاتين الجميلتين لمس خطأ رأس الفتاة الثانية فسقط تاج فروزى صغير كان على رأسها ، فتوقفت عن التجديف وعن الغناء وتوقفت الفتاتيات اللائي في صفها كذلك . فسأل الملك « لم توقفتن عن العمل ؟ » فأجبت الفتاة « ذلك لأن تاجي (الفروزى) سقط في الماء ». فقال الملك — « استمرى في الغناء وسأعطيك واحداً غيره »

— « أريد تاجي القديم ولا أرغب في امتلاك سواه »
فدعى الملك الساحر وقال له « لقد سرق قلبى لاتباعى مشورتك ، ولكن سقط تاج هذه الفتاة في الماء ودعاهما ذلك للسكوت بما جعل جميع فتيات صفها يتوقفن عن التجديف وهي ترغب في استعادة التاج المفقود »
وهنا وقف الساحر في القارب وفأه بكلمات غريبة غامضة

وعلى أثر ذلك ارتفعت المياه الموجودة في نصف البحيرة وتحممت على سطح مياه النصف الآخر حتى ارتفعت بذلك المياه إلى علو عظيم ، ووقفت سفينة الملك على سطح المياه العالية وظهر قعر البحيرة في النصف الآخر منها وما فيه من الأصداف المتلاصنة تحت أشعة الشمس ورقي التاج الصغير على صدقة مكسورة ، فقفز الساحر وأتى به ورجم إلى السفينة . ثم فأه مرة أخرى بكلمات غريبة فرجعت البحيرة إلى ما كانت عليه أولا

أمضى الملك يوما سعيدا و وهب للساحر مالا و هدايا
ولما أتم ابن الملك قصته سر بها الملك و لمج لسانه ب مدح القدماء والآباء على
أعماهم

ثم قام ابن آخر له هو الامير « هورداديف » وقال « أنها الملك ، هذه قصة
من قصص الأيام الغابرة ولا يستطيع أحد أن يجزم بصحة خبرها أو كذبه .
ما أنا فسوب أقدم بين يديك ساحرا يعيش في زماننا هذا »
— « من هذا الساحر يا هورداديف ؟ »

« اسمه ديدى وعمره مائة وعشرة أعوم ، وطعامه اليوسى خمسة رغيف
وشرابه مائة ابريق من الجعة وهو - بفنونه السحرية - يستطيع أن ينبت رأسا
فصل عن جسمه ، وله القدرة على أن يخضم أسد الصحراء له ويجعله يتبعه
ذليلا مستكينا ، ويعرف سر منزل الرب الذى طالما تشوّقت لمعرفته »
« وفي الحال أمر الملك ابنه باحضار الساحر وصدع الامير للأمر وأتى به

في القارب الملكي

وخرج الملك الى فنا القصر ومثل ديدى بين يديه فسأله الملك

ـ « لم لم أرك من قبل ياديدى ؟ وأجابه الساحر

ـ « وهبك الرب الحياة والصحة والقوة أياها الملك ، ان المرء لا يحظى بالثواب

بين يديك الا اذا دعوه »

ـ « هل صحيح أنك تستطيع أن تثبت رأسا فصل عن جسمه ؟

ـ « هذا صحيح يا مولاي »

فقال الملك ، احضروا سجينًا وقطعوا رأسه وسرى كيف تثبت في جسمه ،

ـ « أطال الرب عمرك أياها الملك ، الاوافق أن نقطع رأس حيوان أو طير

على أن نفصل رأس انسان ، وأتوا بأوزة وقطعوا رأسها ثم وضعوا الرأس في
ركن والجسم في ركن آخر ، ووقف الساحر يتمتم بكلمات غامضة ، فحدث ما بعد
معجزة إذ تحرك الرأس نحو الجسم وسار الجسم تجاه الرأس ثم التصقا بعضهما

كما كانا ، وقامت الاوزة على قدميها أمام عرش الملك ثم صاحت
تم أعاد ديدى التحريبة على رأس ثور ضخم ، لما شاهد الملك ذلك قال للساحر

ـ « وهل حقيق تعرف سر منزل الرب ؟

ـ « نعم . هذا صحيح ولكن لست أنا الذى استطيع أن أعلمك به »

ـ « اذن من الذى يستطيع ؟

ـ « هو الولد الاكبر للسيدة « رده ديديت » زوجة داهن رع إله الشمس ، وقد

وقد وعده رع بأن أولاده الثلاثة سوف يحكمون عالماً لكم »

ولما سمع الملك هذه الجملة اضطرب قلبه وظهرت على وجهه علامات القلق ،

فقال ديدى : « لا تضطرب أياها الملك فسوف يحكم بعدك انك وسوف يحكم

يُعده ابنه ، ولكن بعد هذا الحفيد سيُؤول العرش الى أحد الابناء الثلاثة ،
وأمر الملك بأن يقيم الساحر في القصر وأن يقدم له يومياً مائة رغيف ومائة
أبريق من الجمعة وثور ومائة بصلة .

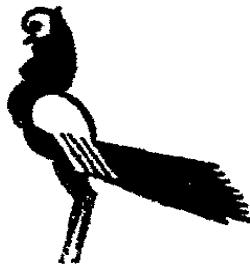
ولما ولد الأولاد الثلاثة أرسل اليهم رع أربع ربات ليكن مربياتهم
وقد جئن في لباس الراقصات المرتحلات وجاء معهن رب في ذى حمال ، فلما
رَبِّيَنَ الْأَطْفَالَ التَّلَاثَةَ قَالَ لَهُنَ زَوْجَ رَدِّ دِيدِيتْ « أَيْهَا السَّيْدَاتِ أَىْ أَجْرٍ تَطَلَّبْنِ ؟
مَمْ أَعْطَاهُنَ أَكِيَاساً مَعْلُومَةً شَعِيرَةً ، وَذَهَبْنَ بَعْدَ أَنْ أَخْذَنَ أَجْرَهُنَ
وَلَمَّا بَعْدَنَ مَسَافَةً قَصِيرَةً قَالَتْ رَبِّيَسْتِينْ وَهِيَ إِيزِيسْ « لَمْ لَانْفَاجِيَ » الْكَاهِنُ
بِأَعْجُوبَةً ؟ ، وَعَلَيْهِ فَقَدْ صَنَعْنَ تِيجَانَاهُ مِنْهَا تَاجَ مَصْرُ الْأَحْمَرِ وَتَاجَهَا الْأَيْضُ
وَأَخْفَيْنَاهَا فِي كِيسِ الشَّعِيرِ وَوَضَعْنَهُ فِي مَخْزُونَ « رَدِّ دِيدِيتْ » ، وَذَهَبْنَ إِلَى حَالِ
سَيِّلِيَنْ

وَبَعْدَ مَضِيِّ أَسْوَعَ - وَكَانَتْ رَدِّ دِيدِيتْ تَصْنَعْ بَيْرَةً لِأَهْلِ الْمَنْزِلِ - أَرْسَلَتْ
خَادِمَةً لَهَا إِلَى الْمَخْزُونِ لِتَحْضُرَ كِيساً مَعْلُومَةً شَعِيرَةً ، وَذَهَبَتِ الْفَتَاهُ إِلَى الْمَخْزُونِ
وَلَكِنَّهَا لَمْ تَمْكُثْ فِيهِ دِقْيَقَهُ حَتَّى سَمِعَتْ نَغْمَاتِ تِيجَيَهُ وَصَوْتِ غَنَاءِ وَرَقْصِ
مَا لَا يَسْمَعُ مِثْلَهُ إِلَّا فِي قَصْرِ الْمَلِكِ ، فَارْتَعَبَتِ الْفَتَاهُ وَرَجَعَتْ لِسَيِّدَتِهَا وَأَخْبَرَتْهَا
بِالْأَمْرِ وَنَزَّلَتِ السَّيْدَهُ فَسَمِعَتْ الْمُوسِيقِ الْمَلَكِيَّهُ ، وَلَمَّا حَضَرَ زَوْجَهَا أَخْبَرَهُهُ عَنْ
قَصَّهُ الْغَنَاءِ ، وَعْلَمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَوْلَادَهُ سَيَحْكُمُونَ مَصْرَ ، وَقَدْ بَاتَتِ الْأَسْرَهُ
هَذِهِ اللَّيْلَهُ عَلَى أَسْعَدِ مَا يَكُونُ . وَبَعْدَ مَدَهُ قَصِيرَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَهِ بَدَا مِنْ تَحْرِفِ
الْخَادِمَهُ مَا حَلَّ سَيِّدَتِهَا عَلَى طَرْدَهَا بَعْدَ ضَرْبِ مَوْجِعٍ . وَقَالَتِ الْخَادِمَهُ لِخَادِمَهُ
الْمَنْزِلِ وَهِيَ تَوَدِّعُهُمْ :

« هَلْ يَصْحُّ أَنْ تَعْامِلَنِي هَذِهِ الْمُعَامَلهُ ؟ لَقَدْ وَلَدْتُ مَلُوكًا وَسَأَنْقُلُ خَبَرَهُمُ إِلَى
الْمَلَكِ خَوْفُو ، وَانْصَرَفَتِ إِلَى عَمَّهَا وَأَخْبَرَتْهُ بِمَا عَقَدَتِ الْعَزْمَ عَلَى عَمَّهُ ، وَلَكِنَّهُ
غَضِبَ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْضِ أَنْ تَخُونَ الْأَطْفَالَ الْأَبْرِيَاءَ وَضَرَبَهَا بِسُوطٍ
ضَرِبَّاً أَلِيَاً

وتركَتَ مِنْزِلَ عِمَّهَا وَهَامَتْ عَلَى وَجْهِهَا ، وَبَيْنَمَا هِيَ تَسِيرُ عَلَى شَاطِئِ النَّيلِ
ظَهَرَ نَسَاجٌ بِفَأْةٍ وَجَذِبَهَا إِلَيْهِ وَاخْتَنَقَتْ بِهَا فِي الْمَاءِ
وَهُنَّا - لِلأسْفِ - تَنْتَهِيَ الْقَصَّةُ وَلَمْ نَعْرِفْ هَلْ حَاوَلَ خَوْفُو قَتْلُ الْأَطْفَالِ
أَمْ لَا ، فَانْ أُورَاقُ الْبَرْدِيِّ مَفْقُودَةٌ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ عَنْهَا شَيْئًا
وَلَكُنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْمُلُوكَ الْثَلَاثَةَ الَّذِينَ خَلَفُوا أَسْرَةَ خَوْفُو فِي حُكْمِ مِصْرَ كَانُوا
يَحْمِلُونَ أَسْهَامًا كَاسِيَا أَوْ لَادَ دَاهِنَ دَعَ

هَذِهِ هِيَ أَقْدَمُ الْإِسْاطِيرِ فِي الْعَالَمِ ، وَقَدْ لَا تَكُونُ جَمِيلَةٌ جَذَابَةٌ بِحِيثِ تَسْتَبِيرُ
أَعْجَابَكَ ، وَلَكِنْ يَلْزَمُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ بِدَائِيَّةٍ وَأَنَّ الَّذِينَ كَتَبُوا هَذِهِ الْقَصَصَ
لَمْ يَكُونُوا مُدْرِيِّينَ فِي فَنِ الْقَصَصِ هَذَا نَحْنُ الْآنُ



الفصل الثامن

بعض الاساطير

أما هذه القصة التي سأرويها الآن فقد كتبت في زمن أحدث بعشرات السنين من القصر التي روتها في الفصل السابق . وأستطيع أن أقول إن الأطفال المصريين القدماء كان ينظرون إليها كما ينظر الأطفال الآن إلى قصة السندباد البحري وأنهم كانوا يشعرون بلذة في اثناء تلاوتها تعادل ما يشعر به أطفالنا الآن في اثناء قراءة السندباد البحري

وهي تدعى «قصة ملاح السفينة المكسورة» ، والملاح نفسه هو الذي يقصها لنبيل مصرى . حدث الملاح قال :

أبحرت سفينتي على قصد التجوال حول ملك فرعون العظيم ، وكانت سفينتنا من أعظم السفن لا يقل طولها عن ٢٢٥ قدماً وعرضها عن ٦٠ قدماً ، وكان عدد ملاحها ١٥٠ رجلاً من صفة ملاحى القطر . شداد القلوب الأسود . وكنا جميعاً سعداء يصور لنا الأمل رحلة جميلة وعداؤاً هنيئاً . ولكن عند اقترابنا من أحد الشواطئ هبت عاصفة عظيمة أثارت الأمواج ثوراناً عظيماً حتى ارتفعت كالجبال العالية . فغرقت سفينتنا الجميلة وغمرتها المياه وذهب كل جهود بذلناه لإنقاذها سدى

وكان من حسن حظى أن تعلقت بقطعة خشب كبيرة . جلتها المياه ونا عليها ثلاثة أيام طوال حتى رست بي على شاطئ جزيرة . وكنت إذ ذاك وحيداً فقد غرق كل من كان معى على ضهر ساخرة . ففقدت تحت غصون بعض الأشجار وقد انهكت قوياً

ومكثت على هذه الحالة مدة . عرف سرها حتى استرددت بعض نشاطي فقمت . حتى شعرت بجهد . ولم أبدِ جهد في ذلك لأن الجزيرة كانت غنية بالفواكه كثرين ولا عذب ونافحة خروب وأنواع الطيور . فاكتت حتى شعبت وأوقدت

نارا . ثم قدمت تصحية للإلهة معبرا عن الشكر والحمد لفضلها على بالحياة والنجاة بعد الموت المحقق

وجلست مفكرا . ثم دوى في الفضاء صوت صارخ كالرعد القاصف أزعج السكون الشامل . وهز الأشجار وزلزل الأرض . فنظرت حولي بخوف مستطلاً فرأيت ثعبانا هائلا يرتفع نحوى . وكان طوله خمسين قدما وطول شوكته ثلاثة أقدام . وكان جسمه يتلا لا تحت أشعة الشمس كالذهب . ولما اقترب مني التفت حول نفسي حتى صار كعمود مرتفع ذي حلقات فارتعبت وسقطت على وجهى من شدة الخوف والفزع . فابتدرني قاتلا :

« ما الذي أتي بك إلى هنا ؟ أيها الشيء الصغير . ما الذي أتي بك إلى هنا ؟ تكلم أنك ان لم تخبرني سريعا عما أتي بك إلى هذه الجزيرة فسأريك كما يقى اللهب » ولم يتم حديثه حتى أخذني في فمه وحملنى إلى وجراه وتركني على الأرض ولم يمسني بأى سوء . ثم قال ثانية :

« ما الذي أتي بك إلى هنا أيها الشيء الصغير ؟ ما الذي أتي بك إلى هذه الجزيرة ؟ وهنالك قصصت عليه تاريخ رحلتى من وقت أبحارنا إلى مصر حتى ساعة غرق السفينة وأخبرته كيف غرق زملائى ونجوت وحدى فقال لي :

« لا تحف أيها الصغير . وأمسح مسحة الحزن عن وجهك . اذا كنت أتيت إلى هنا فالرب هو الذي أرسلك إلى هذه الجزيرة المعلومة بالخيرات . اسم الآن ستقيم هنا أربعة أشهر . وفي نهايتها ستقدم سفينة من وطنك إلى هذه الجزيرة وستعود فيها إلى وطنك آمنا حيث تموت في مسقط رأسك . وان أردت أن تعلم شيئا عنى فاعلم أى أقيم هنا مع رفقاءى ومع أولادى . وعددنا جميعا خمسة وسبعون وبجانب ذلك كانت توجد قنطرة صغيرة . أتى بها القدر إلى هنا وقد حرقت بنار من السماء . وإذا كنت قويًا وصبورا فسوف تهلك أولادى وزوجتى . وتعيش معنا سعيدا حتى تعود إلى وطنك »

وهذا انتهيت أمامه باحترام ووعده بأن أقص خبره لفرعون وان أعود إليه بسفن محملة من جميع كنوز مصر التي لا يوجد مثيل لها في البلدان الأخرى . ولتكن ابتسامة لكلامي وقل :

لِيْس فِي بَلَادِكَ مَا أُرْغَبَ فِيهِ، لَا تَنْهَا أَمِيرَ بَلَادِ « بَنْتَ » وَكُلَّ كَنْوَزِهَا مَلِكٌ
لِيْ، وَفَوْقَ ذَلِكَ فَانِكَ بَعْدَ أَنْ تَرْحُلَ مِنْ هَنَا لَنْ تَرَى هَذِهِ الْجَزِيرَةَ مَرَّةً أُخْرَى
لَا تَنْهَا سَتَكُونُ حِينَذِاكَ أَمْوَاجًا كَأَمْوَاجِ الْبَحْرِ،

وَانْتَظَرْتَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَقَدْ صَدَقْتَ كَلَمَةَ الثَّعَابِنِ وَأَنْتَ السَّفِينَةُ الْمَوْعِدَةُ وَقَدْ
حَدَثَنِي الثَّعَابِنُ قَائِلًا « وَدَاعِاً وَدَاعِاً »، اذْهَبْ إِلَى وَطَنِكَ، أَيْهَا الصَّغِيرُ؛ وَتَمْتَعْ
بِرُوْيَةِ أَطْفَالِكَ بَعْدَ هَذَا الغِيَابِ، وَلَا تَذَكَّرْ إِسْمِي إِلَّا بِالْخَيْرِ، هَذَا كُلُّ مَا أُرْغَبَ فِيهِ
وَوَدَعْتُهُ وَرَكِبْتَ السَّفِينَةَ بَعْدَ أَنْ زُوْدَنِي بِعَطَايَا نَفِيسَةَ مُثْلِعَةَ الْعَاجِ وَالْأَخْشَابِ
وَغَيْرِهَا

وَقَدْ وَصَلَنَا أَرْضَ مَصْرَ بَعْدَ شَهْرَيْنَ فِي الْمَاءِ وَسَاحَطْنِي بِالْمَشْوَلِ بَيْنَ يَدِي فَرَعَوْنَ
وَأَقْصَى لَهُ قَصْتِي وَأَقْدَمْ لَهُ هَدَيَايَا الثَّعَابِنِ وَسَوْفَ يَشْكُرْنِي الْمَلِكُ فِي حَضْرَةِ
عَظِيمَاءِ مَصْرَ ١٠١.

٦ -

أَمَا الْقَصَّةُ الْآخِيَّةُ فَقَدْ كُتِبَتْ بَعْدَ قَصَّةِ السَّفِينَةِ السَّابِقَةِ بِمَدْةِ طَوِيلَةٍ
فِي سَنَةِ ١٥٠٠ قَبْلَ الْمِيلَادِ حَكَمَتْ مَصْرَ أَسْرَةً مَالِكَةً اشتَهِرَتْ بِعِيلِهَا الْحَرْبِ،
وَقَدْ أَسْسَ أَفْرَادُهَا امْبِراطُورِيَّةً كَانَتْ مِنْ السُّودَانَ جَنُوبًا إِلَى سُورِيَا وَنَاهَارِيَا
شَمَالًا، وَكَانَتْ هَذِهِ الْامْبِراطُورِيَّةُ أَرْضًا بَجْهُولَةَ قَلَ فَتَحَهَا وَأَمْتَلَكَهَا، فَكَانَتْ
هَذِهِ الْأَرْضُ مُثْلِعَةً مِثْلَ أَمْرِيَّكَا عَلَى عَهْدِ الْمَلِكَةِ الْبِزَابِتِ
وَهَذِهِ الْقَصَّةُ هِيَ « الْأَمِيرُ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ بِالْحَلَاقَ »، الَّتِي سَأَرَوْهَا لَكَ تَمْثِيلُ بَعْضِ
أَدْوَارِهَا فِي نَاهَارِيَا وَالْعَضُّ الْآخِرُ فِي مَصْرَ وَهِيَ — كَاسْتِرِي — تَمَتْ بِأَسْبَابِ
كَبِيرَةٍ إِلَى قَصْصَنَا الْخَرَافِيَّةِ الْحَدِيثَةِ

يَحْكَىُ أَنَّهُ كَانَ بِمَصْرَ مَلِكٌ لَمْ يَلِدْ وَارَثًا لِعَرْشِهِ . وَقَدْ أُورَثَهُ ذَلِكَ حَزْنًا دَائِمًا
وَكَيْدًا كَثِيرًا مَا يَصْلِي لِلَّاهَةِ وَيَضْرِعُ إِلَيْهَا إِنْ تَهْمِهِ طَفَلًا . فَاصْفَتَ الْأَاهَةُ إِلَى
تَهْنِيَّاتِهِ وَوَهْنِهِ طَفَلًا . وَلَمَّا جَاءَهُ حَدَائِهِ إِيْكِنْفِنْ « الْسَّتَّارُ عَنْ مُسْتَقْلَهِ قَلْنَ » :
سِيَكُونُ مُوتَهُ عَنْ يَدِ تَمْسَاحٍ أَوْ تَعْبُّرٍ أَوْ تَبَّ . وَمَا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ زَالَ عَنْهُ
السِّرُورُ وَزَعَدَ لِيْ خَرْدَ وَلَانَهُ . وَبَعْدَ تَصْكِيرِ حُوَيْلِ عَزْمٍ عَلَى حَفْظِ الطَّفَلِ فِي
مَكَنٍ حَرَبِ حَبَّ نَسَبِ بِيَصَّرْ « يَهُ ضَرَرُ أَوْ سُوءٌ . وَبَنِي لَهُ قَصْرٌ نَعِيَادًا »

الصحراء واته بأغنم الآثار وأرسل اليه الطفل تحت رعاية خدم أمناء يحرسونه ويسرون على راحته . وهكذا نما الطفل وكبر في هذا القصر بعيداً عن العالم وما فيه ولكن في ذات يوم وكان الطفل واقفاً على سطح القصر . رأى رجلاً يسير في الصحراء يتبعه كلب فقال للخادم الذي معه :

— ما هذا الذي يتبع الرجل ؟

— إنه كلب .

— احضر لي واحداً منه .

ثم ان الخادم ذهب الى الملك واعلمه بالخبر . فقال الملك :

— ابحث له عن جرو ، كلب صغير ، وخذه اليه حتى لا يحزن

ونفذ الخادم امر الملك واشتري للأمير كلباً صغيراً

وشب الأمير وترعرع وشعر بالملل والضجر من وجوده وحيداً في القصر

ولما نفذ صبره أرسل لأخيه رسالة جاء فيها :

« ولماذا تخبيني هنا دائماً ؟ إن كان الموت مقدراً لي على يد أحد الحيوانات الثلاثة فدعني أنسى في الدنيا ما أشتوى وليقض الوب ما يريد »

واقتنع الملك برأي الأمير . فاعطوا للأمير سلاحاً وذهبوا معه الى الحدود الشرفية وقالوا له « اذهب حيث تشاء ، فسار صوب الشمال وطلبه يتبعه حتى وصل إلى ناهارينا

وكان حاكماً هذه البلاد بنتاً واحدة بني لها قصراً عجياً — شيد على قمة صخرة سبعة يards رتّها على مائة قدم وكان بالقصر سبعة نوافذ وقد جمع الحاكم كلّ حبة . ولـ « صدر » وقال لهم :

« ستكون ابنتي زوجة من يستقيم . لكن سق بصحراء وانسحول من أحدي النوافذ »

وقد عسكر الامراء حول الصخرة المشيدة عليها القصر ثم أخذوا يحاولون تسلق الصخرة كل يوم ولكن واحداً منهم لم يستطع الوصول الى الأفقنة لأن الصخرة كانت مرتفعة وعظيمة الانحدار

في ذات يوم وهم في حاولتهم من بهم الامير المصري وكلبه الامير فرجعوا

لَيْسَ فِي بَلَادِكَ مَا أُرْغَبَ فِيهِ، لَا تَنْ أَمِيرَ بَلَادَ « بَنْتَ » وَكُلَّ كَنْوَزِهَا مَلِكٌ
لَى، وَفُوقَ ذَلِكَ فَالِكَ بَعْدَ أَنْ تَرْحَلَ مِنْ هَنَا لَنْ تَرَى هَذِهِ الْبَيْزِيرَةَ مَرَّةً أُخْرَى
لَا تَنْهَا سَتَكُونُ حِينَذِكَ أَمْوَاجًا كَأَمْوَاجِ الْبَحْرِ »

وَانْتَظَرْتَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَقَدْ صَدَقْتَ كَلِمَةَ الشَّعْبَانَ وَأَتَتِ السَّفِينَةُ الْمُوعُودَةُ وَقَدْ
حَدَثَتِي الشَّعْبَانُ قَاتِلًا « وَدَاعًا وَدَاعًا »، اذْهَبْتَ إِلَى وَطْنِكَ، أَيْهَا الصَّغِيرُ؛ وَتَمْتَعْ
بِرْقِيَّةِ أَطْفَالِكَ بَعْدَ هَذَا الْغَيَابِ، وَلَا تَذَكَّرْ أَسْمِي إِلَّا بِالْخَيْرِ، هَذَا كُلُّ مَا أُرْغَبَ فِيهِ
وَوَدَعْتَهُ وَرَكَبْتَ السَّفِينَةَ بَعْدَ أَنْ زَوَّدْنِي بِعَطَائِيَا نَفِيسَةَ مِثْلِ الْعَاجِ وَالْأَخْشَابِ
وَغَيْرِهَا

وَقَدْ وَصَلْنَا أَرْضَ مَصْرَ بَعْدَ شَهْرَيْنِ فِي الْمَاءِ وَسَاحَطْنِي بِالْمَشْوَلِ بَيْنَ يَدِي فَرَعُوْنَ
وَأَقْصَى لَهُ قَصْتِي وَأَقْدَمْتَهُ هَدِيَايَا الشَّعْبَانَ وَسَوْفَ يَشْكُرْنِي الْمَلِكُ فِي حَضْرَةِ
عَظِيمَاهُ مَصْرَ ١٩٠١هـ

* * *

أَمَا الْقَصَّةُ الْآخِيرَةُ فَقَدْ كُتِبَتْ بَعْدَ قَصَّةِ السَّفِينَةِ السَّابِقَةِ بِمَدْةِ طَوِيلَةٍ
فِي سَنَةِ ١٥٠٠ قَبْلَ الْمِيلَادِ حَكَمَتْ مَصْرَ أَسْرَةً مَالِكَةً اشتَهِرَتْ بِمِيلَهَا الْحَرَبِيِّ،
وَقَدْ أَسْسَ أَفْرَادُهَا امْبِراطُورِيَّةً كَانَتْ مِنْ السُّودَانَ جَنُوبًا إِلَى سُورِيَا وَنَاهَارِيَا
شَمَالًا، وَكَانَتْ هَذِهِ الْامْبِراطُورِيَّةُ أَرْضًا مَجْهُولَةً قَبْلَ فَتْحِهَا وَامْتِلَاكِهَا، فَكَانَتْ
هَذِهِ الْأَرْضُ مِثْلَ أَمْرِيَّكَا عَلَى عَهْدِ الْمَلِكَةِ الْبِزَابِتِ
وَهَذِهِ الْقَصَّةُ هِيَ « الْأَمِيرُ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ بِالْهَلَالِ »، الَّتِي سَأَرَوْهَا لَكَ تَمْثِيلُ بَعْضِ
أَدْوَارِهَا فِي نَاهَارِيَا وَالْبَعْضُ الْآخَرُ فِي مَصْرَ وَهِيَ — كَمَا سُتْرِيَ — تَمَتْ بِأَسْبَابِ
كَبِيرَةٍ إِلَى قَصْصَنَا الْخَرَافِيَّةِ الْمَدِيَّةِ

يَحْكَىُ أَنَّهُ كَانَ بِمَصْرِ مَلِكٌ لَمْ يَلِدْ وَارَثًا لِعَرْشِهِ . وَقَدْ أُورَتَهُ ذَلِكَ حَزْنًا دَائِمًا
وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَصْلِي لِلَّاَلَّهَةِ وَيَضْرِعُ إِلَيْهَا أَنْ تَهْبِطْ طَفْلًا . فَاصْفَتَ الْأَلَّهَةُ إِلَى
تَضْرِعَاتِهِ وَوَهْبَتْهُ طَفْلًا . وَلَمَا جَاءَتِ « جَدَاتِهِ » لِيَكْتَشِفْنِ الْسَّتَّارَ عَنْ مَسْتَقْبَلِهِ قَلَنْ :
« سَيَكُونُ مَوْتُهُ عَلَى يَدِ تَمْسَاحٍ أَوْ بَعْيَانٍ أَوْ طَافِ » . وَلَمَا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ زَالَ عَنْهُ
السُّرُورُ وَعَادَ إِلَى الْحَزْنِ وَالْأَلَمِ . وَبَعْدَ تَفْسِيرِ طَوِيلِ عَزْمِهِ عَلَى حَفْظِ الطَّفْلِ فِي
مَكَانٍ حَرِيزٍ حَيْثُ لَا يَمْتَنَنُ إِنْ يَصْلِي إِلَيْهِ ضَرَرٌ أَوْ سُوءٌ . وَبَنِيَ لَهُ قَصْرًا نَعِيدًا فِي

الصحراء واثه بأنقذ الآثار وأرسل اليه الطفل تحت رعاية خدم أمته يحرسونه ويسيرون على راحته . وهكذا نما الطفل وكبر في هذا القصر بعيداً عن العالم وعما فيه ولكن في ذات يوم وكان الطفل واقفاً على سطح القصر . رأى رجلاً يسير في الصحراء يتبعه كلب فقال للخادم الذي معه :

— « ما هذا الذي يتبع الرجل؟ »

— « انه كلب »

— « احضر لي واحداً منه »

ثم ان الخادم ذهب الى الملك واعلمه بالخبر . فقال الملك :

— ابحث له عن جرو « كلب صغير » وخذله اليه حتى لا يحزن
ونقد الخادم امر الملك واشتري للأمير كلباً صغيراً

وشب الامير ونُرِّعْ وشعر بالملل والضجر من وجوده وحيداً في القصر
ولما نفذ صبره أرسل لآبيه رسائل جاء فيها :

« ولماذا تحبسني هنا دائماً؟ ان كان الموت مقدرائي على يد أحد الحيوانات
الثلاثة فدعني أنسى في الدنيا ما أشتمني وليقضي الرب ما يريد »

واقترن الملك برأى الامير . فاعطوا للأمير سلاحاً وذهبوا معه الى الحدود
الشرقية وقالوا له ، اذهب حيث تشاء ، فسار صوب الشمال وله يتبعه حتى وصل
إلى ناهارينا

ركان لحاكم هذه البلاد بنتاً واحدة بني لها قصراً عجياً — شيد على قمة
صخرة ساقعة بيد ارتفاعها على مائة قدم وكان بالقصر سعة نوافذ
وقد جمع الحكم أبناء حكام المدن الصغار وقال لهم :

« ستكون ابنتي زوجة من يستقيم مسلكاً لسلق الصحراء والدخول من
أحدى النوافذ »

وقد عسكر الامراء حول الصخرة المشيدة عليها القصر ثم أخذوا يحاولون
تلقي الصخرة كل يوم ولكن واحداً منهم لم يستطع الوصول الى النافذة لأن
الصخرة كانت مرتفعة وعظيمة الاحدار

في ذات يوم وهم في حماولتهم من بهم الامير المصري وكلبه الامين فرجعوا

بـه وأعطـوا له زادـاً هو وـكلـه وـسـأـلوـه :
ـ من أين أـيـتـ أـيـها الشـابـ النـبـيلـ ؟
ـ ولم يـرـغـبـ فيـ أـنـ يـخـبـرـهـ بـأنـهـ ابنـ فـرـعـونـ مـصـرـ فـاجـابـ :
ـ أناـ ابنـ ضـابـطـ مـصـرـىـ ،ـ وـقـدـ تـزـوـجـ أـبـيـ أـخـرىـ ،ـ وـلـمـ وـلـدـ أـطـفـالـاـ كـرـهـتـىـ
ـ أـشـدـ السـكـرـهـ وـطـرـدـتـىـ مـنـ مـنـزـلـ أـبـىـ ،ـ

ـ فـضـمـوـهـ إـلـىـ رـفـقـتـهـ وـعـاـشـ بـيـنـهـ .ـ ثـمـ سـأـلـهـ
ـ لـمـاـذـاـ تـقـيـمـونـ هـنـاـ ؟ـ وـلـمـاـذـاـ تـحـاـولـونـ تـسلـقـ هـذـهـ الصـخـرـةـ ؟ـ
ـ فـاخـبـرـوـهـ عـنـ الـأـمـيرـ الـجـمـيـلـةـ الـتـىـ تـعـيـشـ فـيـ القـصـرـ وـكـيـفـ اـنـ أـوـلـ مـنـ يـصـلـ إـلـىـ
ـ نـافـذـتـهـ يـتـرـوـجـهـاـ
ـ وـاشـتـرـكـ الـأـمـيرـ مـعـهـمـ وـنـجـحـ فـيـ الـوصـولـ إـلـىـ الـغـرـضـ وـلـمـ رـأـتـهـ أـحـبـتـهـ وـقـبـلـهـ
ـ وـفـيـ الـحـالـ نـمـاـ الـخـبـرـ إـلـىـ مـسـامـعـ الـحـاكـمـ وـلـمـ سـأـلـ الـذـىـ أـوـصـلـ لـهـ الـخـبـرـ عنـ
ـ الـأـمـيرـ الـذـىـ ظـفـرـ بـاـبـتـهـ أـجـابـ الرـجـلـ

ـ هـوـلـيـسـ أـمـيـراـ ،ـ اـنـ هـوـلـاـ اـبـ ضـابـطـ مـصـرـىـ طـرـدـتـهـ زـوـجـةـ أـبـيـهـ مـنـ المـنـزـلـ ،ـ
ـ قـثـارـ غـضـبـ الـحـاكـمـ وـقـالـ «ـ هـلـ تـتـرـوـجـ اـبـتـىـ مـصـرـيـاـ مـتـشـرـداـ ؟ـ اـرـجـعـوـهـ إـلـىـ مـصـرـ ،ـ
ـ وـلـاـ رـجـعـ الرـسـوـلـ إـلـىـ الـأـمـيـرـ وـأـعـلـمـ بـاـرـادـةـ الـحـاكـمـ الـقـاضـيـةـ باـقـصـائـهـ عـنـ مـلـكـهـ
ـ أـمـسـكـتـ الـأـمـيـرـ بـيـدـهـ وـقـالـتـ «ـ إـذـاـ أـسـدـتـمـوـهـ عـنـ ،ـ فـسـوـفـ لـاـ أـكـلـ وـلـاـ أـشـرـبـ
ـ حـتـىـ أـمـوـتـ فـيـ أـقـرـبـ وـقـتـ ،ـ

ـ فـارـسـلـ الـأـبـ رـسـلـاـ لـيـقـتـلـوـاـ الـمـصـرـىـ وـلـكـنـ الـأـمـيـرـ تـعـرـضـتـ لـهـمـ وـقـالـتـ «ـ إـنـ
ـ قـتـلـتـمـوـهـ ،ـ سـتـجـدـوـيـ مـيـتـةـ قـلـغـرـوبـ الشـمـسـ ،ـ لـنـ أـعـيـشـ سـاعـةـ وـاحـدـةـ بـعـيـدةـ عـنـهـ ،ـ
ـ وـعـلـىـ ذـلـكـ وـاقـقـ الـحـاكـمـ عـلـىـ كـرـهـ وـتـزـوـجـ الـأـمـيـرـ مـنـ الـأـمـيـرـ وـوـهـبـ الـحـاكـمـ
ـ لـهـمـ قـصـرـاـ وـعـيـدـاـ وـخـيـرـاـ جـزـيـلاـ

ـ وـبـعـدـ مـضـىـ زـمـنـ طـوـيـلـ قـالـ الـأـمـيـرـ لـلـأـمـيـرـ «ـ كـتـبـ لـيـ الـمـوـتـ أـمـاـ يـدـ تـسـاحـ
ـ اوـ تـسـانـ اوـ كـلـبـ ،ـ

ـ «ـ إـذـاـ لـمـاـذـاـ تـحـمـظـ بـجـانـكـ هـدـاـ الـكـلـبـ ؟ـ دـعـنـاـ بـقـتـلـهـ ،ـ

ـ «ـ كـلـاـ لـنـ أـقـتـلـ كـلـبـ الـأـمـيـنـ الـذـىـ نـسـاـ عـنـدـيـ مـنـذـ هـاـ جـرـواـ صـغـيـراـ ،ـ
ـ وـأـمـتـلـكـ قـلـبـ الـأـمـيـرـ الـخـوفـ عـلـىـ حـيـاةـ زـوـجـهـاـ فـاـنـ يـسـعدـ عـنـ عـيـنـهـاـ لـحـظـةـ ،ـ
ـ وـعـدـ أـعـوـامـ رـجـعـ الـأـمـيـرـ وـزـوـجـتـهـ وـكـلـبـهـ إـلـىـ مـصـرـ حـيـثـ أـقـامـ الـجـمـيـلـ فـيـ سـعـادـةـ وـأـطـمـشـانـ

وفي ذات مساء استولى نوم عميق على الامير وملأه الاميرة أناه لبناً ووضعته بجانبه ثم جلست ترقه بعينيها الساهرتين ، فرأت حية عظيمة ترتفع نحو الامير فامررت الخدم ان يقدموا لها اللبن فاقبلت عليه تشرب منه حتى لم تستطع حرaka

وهنا قتلت الاميرة الحية بعدة طعنات من خنجرها

ثم أنها أيقظت زوجها الذى كانت دهشته عظيمه عندما رأى الحية الميتة بجانبه . وقالت زوجته :

« لقد بحثك الرب من المخطر الاول وسينجيك من الآخرين »

هنا لك قدم الامير للآخر أنه تضحية وشكراً من أعماق قلبه

و في يوم من الايام ذهب الامير للتمشى في أملاكه كالمعتاد ، وفي أثناء سيرها جرى الكلب في جهة معينة لغرض خفي عن الامير ولكنها تبعه في الحال حتى اقتربا من النيل وسار الكلب ناحية الشاطئ . والامير خلفه وهنا ظهر للامير تمساح عظيم أمسك بالامير وقال :

« أنا مقدورك — أتبعك حيثما سرت »

وهنا تنتهي القصة بلا نهاية ولم تُوجَد بعد بقية لفاف البردي . وبحن تبعاً لذلك لأنّه فـ ما حدث للامير وأظن أنه نجا من التمساح بمساعدة الكلب . ثم أنه مات بواسطة الكلب الامين الذي يحبه ويخصّ له

وعلى كل حال فنهاية القصة كانت حتى بموت الامير ، لأن المصريين كانوا راسخون في اليمان بالقدر وبأنه لا يمكن لانسان ان يحول ارادته عما تنوى فعله بالانسان . ولربما يعثر بعض المستكشفين الذين يجوبون أرض مصر بحثاً عن آثارها أو راق البردي الباقي وسنعرف وقتذاك ما إذا كان الكلب هو الذي قتل الامير أو ان الآلهة بحثه من الاخطر الثلاثة كما أملت بذلك زوجته

هذا مثل من القصص التي كان يستمع اليها الاطفال كل مساء . اذا انهم التعب من اللعب والجري وقد تراها سيطة عارية من كل جمال او لذة . ولكن لا ريب عندي أنه لما كانت تروى قد يعاون عيون الاطفال السوداء بور العجب والدهشة ولا بد ان الساحر الذي يفصل الرأس ويثبته ثابياً كان موضع اعجاب الجميع وان التمساح الذي يتكلم كان يخيف اليهم أنه حقيقة لا مراء فيها ولا جدال وعلى كل حال لقد قرأت الان أقدم الاساطير وهي أجداد - ان صحي أن نقول ذلك - القصص العظيمة الحاضرة التي تعال اعجاب الاطفال وتدخل السرور لقلوبهم الصغيرة في كل زمان ومكان

الفصل التاسع

استكشاف السودان

لا توجد رواية أمتّ من رواية استكشاف القارة المظلمة « إفريقيا » ، لقد استكشفت جزءاً جزءاً حتى انتهى الأمر بمعرفة الأسرار العظيمة التي ظلت مدفونة في جوفها أعواماً لا عدد لها . ولكن هل يمكن تصور طول هذه القصة التي بدأ الفصل الأول منها منذ أحباب لا تعدد ؟

ونحن نقرأ هذا الفصل باللغة المصورة الأنيقة - التي كان يكتب بها قدماء المصريين - على جدران المقابر في الجزء الجنوبي من مصر في مكان يدعى « اليفانتين »

في الأزمنة القديمة كانت حدود مصر الجنوبيّة تقف عند الشلال الأول حيث تنصب مياه النيل في سيل عظيم . ولقد اختفى ذلك الشلال الآن ، لأنّ المهندسين الانجليز بناوا سداً عظيماً في عرض النهر في هذه النقطة وتحول الجزء الذي يلى هذا السد من جهة الجنوب إلى بحيرة كبيرة . أما في تلك الأيام النابرة فكان المصريون يعتقدون أن النيل - الذي يدينون له بكل شيء - ينبع عند الشلال الأول

ومع ذلك كانوا يعرفون شيئاً عن علامة نوبيا المتوحشة الثالثة خلف الشلال . لأنّه قبل خمسة آلاف سنة كان المصريون يرسلون - بين آن وآخر - حملات استكشافية إلى الأرض شبه الصحراوية التي نعرفها الآن باسم السودان

على مقربة من الشلال الأول كانت توجد جزيرة اليفانتين ، ولما كانت الملكة المصرية صغيرة تركت أمر تأديب القبائل النوبية التي كانت تغير على الحدود الجنوبيّة إلى آلامه الذين كانوا يحكمون الجزيرة المذكورة . وحملتهم

مسؤولية حماية القوافل المصرية . فكانوا في كثير من الأحيان يقودون القوافل داخل الصحراء

و كانت القافلة في ذلك الوقت تختلف تمام الاختلاف عما تصوره الآن عند ذكر اسمها من صفات الجمال الذي يخترق الصحراء ، نعم لقد وجد الجمل في مصر قبل بده التاريخ ولدينا صور تثبت ذلك ولكنـه - لسبب نجهله - اختفى منذ مئات السنين ، فلم يستعمله الفراعنة الامراء واستبدلوا به الحمار الذي كان يحمل لهم العاج والذهب . والابنوس الذي كان تستجلب من السودان

و كان أمراً جزيرة اليافتين يحملون لقب « حرس الباب الجنوبي » أو « قواد القوافل » ولم تكن قيادة القافلة أمراً سهلاً ولم يكن الرجوع بها وبكتوزها مع النجاة من غزو القبائل التوبية متيسراً دائماً ، وكم من أمير رحل على رأس قافلة لا يعود بالكتوز . بل ليترك عظامه وعظام رفقاته بين رمال الصحراء ويخيرنا أحدهم كيف انه لما علم بموت أبيه في الصحراء جمع اتباعه وسار جنوباً وخلفه مائة حمار ثم أنزل بالقبائل التي قتلت والده وأبادت قافلته أشد أنواع العقاب وأحضر معه عند عودته لوطنه جثة والده ليدفنها بما تستحقه من الشرف والتقدير

ويمكن قراءة أخبار هذه الرحلات - وهي أول بجهود انساني بذل في سبيل الاستكشاف - على جدران مقابر عظام المستكشفين القدماء . وقد أخبرنا أحد لآباء المدعو « هيركوف » عن أربع رحلات قام بها إلى السودان . ففي الرحلة الأولى كان معه أبيه وقد غاب عن وطنه ما يقرب من سبعة أشهر ، وفي الرحلة الثانية سمح له أن يذهب بمفرده وقد عاد بقافلته آمنة بعد غياب ثمانية أشهر . وقد توغل في رحلته الثالثة أكثر من قبل وجمع كميات كبيرة من العاج والذهب حتى أنه اقتضى حملها ثلثمائة حمار ، ولما كانت مثل هذه القافلة مما يغري تفوس الأربيين ويثير جشعهم فقد اتفق هيركوف مع أحد رؤساء القبائل على ارسال حملة معه لحمايته وهكذا سارت القافلة في مأمن من طمع رجال القبائل وكيدهم ، الذين لم يفكروا في مهاجمتها بل أظهروا استعدادهم لمد يد المعونة للقائد المصري وتزويده بالقطعان والرجال

ولما رجم هيركوف إلى مصر تحملًا بالسكنوز سر الملك بنجاحه حتى أنه أرسل إليه رسولاً خاصاً في قارب ملوء بما لدنه طاب اظهاراً لاعجابه وتقديره وكانت الحملة الرابعة أعظم نجاحاً من سابقيها، ودان الملك الذي تمت الرحلات الثلاث الأولى في عهده قدماً وتولى عرشه طفل يدعى «بيبي» وكان في السادسة من سن حياته وقد حكم تسعين عاماً وهو أطول عمدة أمضاه ملك على عرشه

ففي العام الثانيجلوس بيبي على العرش خرج الرحالة على رأس قافلته للمرة الخامسة وقد أحضر معه شيئاً آثره الملك أكثر على الذهب والجاج أنت تعلم أنه لما ذهب ستانلي في البحث عن أمين باشا اكتشف قوماً في غابات أواسط إفريقيا كلهم أقزام يعيشون في عزلة عن العالمين ويخشون لذلك الغرباء

والظاهر أن أجداد هؤلاء الأقوام كانوا يعيشون في مكان أقرب للسودان ومصر من المكان الذي عثر عليهم فيه ستانلي؛ وقد حدث أن أحضر أحد رحالة المصريين قزماً من هؤلاء إلى قصر فرعون ليسر الملك بشكله الغريب وكان من حسن حظ هيركوف أن فكر في احراز قزم يهديه للملك الصغير ليضمه إلى لعنه الخشبية، ولما سمع الملك الطفل عن هذا القزم سر سروراً عظيماً وقد كان مجرد التفكير فيه يدخل لقلبه سروراً يصغر بجانبه سروره بالذات العظيم آلات اليه من القزم

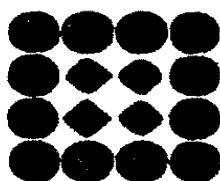
وأمر ستانلي خطاب هيركوف يظهر فيه سروره واعجابه ويطلب منه أن يعتن بالقزم اعتماداً عظيماً حتى لا يصبه ضر أو سوء والخطاب بما فيه من جمل غريبة لا يختلف عن أي خطاب يكتبه طفل ينتظر لعنة جديدة. كتب فرعون الصغير

«ترغب جلالتي في امتلاك هذا القزم أكثر من جزية بلاد بنت وأذا أحصرته إلى القصر سليمها فسيجزيك جلالتي خيراً مما جزى الملك أسا مستشاره بورديد، وهذا المستشار هو الذي أحضر القزم في الأيام القدمة»، ثم أرسل الملك أسا يوافونه بالأخبار عن القزم بعد أن أمرهم بحراسته.

فكانوا يسرون أمام الغرفة التي ينام فيها ، وينظرون إلى وجهه عشرة مرات ليتأكدوا من وجوده حيا سليما . ولا شك أن القزم قد كابد آلاماً كثيرة من هذه المراقبة فكيف يندوق الراحة مثلاً إذا كانوا يواظبونه عشرة مرات ليتأكدوا أنه حي يرزق وأنه سليم معاذ لربما كان الخطر الذي يهدد حياته من شدة عنايته به أعظم مما ينجم لو ترك نفسه وعلى كل حال فقد وصل هيركوف سليماً ومعه القزم ولا ريب أن القزم كان أحسن من جميع لعب الملك كما كان أحبها إلى نفسه

ويعجب الإنسان كيف كانت حال القزم وهو يشاهد المدن المصرية العظيمة بتصورها الشاهقة وهل لم يحن يوماً إلى حريرته الكاملة في موطنها ؟

وقد بلغ افتخار هيركوف بر رسالة الملك أن أمر ببنقتها على جدران قبره حرفاً ، ويمكن قراءتها إلى اليوم وهي تخبرنا عن أول حملة استكشافية ذهب إلى السودان . وتدلنا بذلك على قدم عهد « رواية استكشاف القارة المظلمة » ، كما تدلنا على أن الطفل طفل دائماً ولو عاش قبل الآن تالاف السنين وكان على عرش ملكة عظيمة



الفصل العاشر

رحلة استكشافية

منذ ٣٥٠٠ سنة حكمت مصر ملكة عظيمة ، ولم يكن ذلك مألوفا في مصر ولو ان النساء كن موضع الاحترام والتجلة دائماً ، فقد كانوا يجلون أم الملك ويضعونها في منزلة تمايل منزلة أب الملك احتراماً وتعظيمها

وقد جلست على العرش وأدارت شؤونه بمهارة فائقة وتركـت خلفها كنزـاً من الشهرة والعظمة خـلـد على عمر السـنـين والأعـوـام . وهـى تعدـ من بين أعـظم النساء في العالم أمـثال الملكـة اليـزـابـيث والـملـكـة فيـكتـورـيا

وقد بقـيت الملكـة حـتشـبـسـوت عـهـداً طـويـلاً وـهـي تـشـرـكـ مع زـوجـها في حـكـمـ مصر ، وـفـي أـواـخـرـ أيامـها أـشـرـكـتـ مـعـهـاـ فيـ الحـكـمـ ابنـ أـخـيـهاـ وـورـثـيـهاـ ، وـلـكـنـهاـ حـكـمـتـ بـمـفـرـدـهـاـ مـاـلاـ يـقـلـ عنـ عـشـرـنـ عـامـ سـاـسـتـ فـيـ اـثـنـاءـهـ الرـعـيـةـ بـحـدـقـ وـحـكـمـ وـأـهـمـ ماـ يـلـفـتـ الـانـظـارـ فـيـ قـرـاءـةـ تـارـيـخـهاـ هوـ هـذـهـ الرـحـلـةـ التـيـ أـمـرـتـ جـزـءـاـ مـنـ أـسـطـوـهـاـ بـالـقـيـامـ بـهـاـ . وـلـقـدـ قـامـ الـمـصـرـيـوـنـ بـرـحـلـاتـ بـحـرـيةـ فـيـ الـبـحـرـ الـأـحـرـ إـلـىـ أـرـضـ تـدـعـيـ «ـبـنـتـ»ـ أوـ «ـالـأـرـضـ المـقـدـسـةـ»ـ قـبـلـ حـكـمـ حـتشـبـسـوتـ بـقـرـونـ ، وـمـحـتمـلـ أـنـ تـكـوـنـ بـنـتـ هـذـهـ جـزـءـاـ مـنـ السـوـمـالـ الـحـالـيـ

ولـكـنـ أـوـقـفـ تـيـارـ هـذـهـ الرـحـلـاتـ وـلـمـ يـعـدـ يـعـرـفـ النـاسـ شـيـئـاـ عـنـ هـذـهـ الـأـرـضـ اللـهـمـ إـلـاـ مـاـ تـاـقـلـتـهـ الـعـامـةـ عـامـاـ بـعـدـ عـامـ وـجـيـلاـ بـعـدـ جـيـلـ أوـ مـارـوـتـهـ الـقـصـصـ الـقـدـيـمةـ وـتـخـبـرـنـاـ الـمـلـكـةـ أـنـهـاـ فـيـ يـوـمـ مـنـ الـأـيـامـ وـكـانـتـ تـصـلـيـ فـيـ مـعـدـ آـمـونـ شـعـرـتـ بـوـحـيـ يـنـزـلـ عـلـيـهـاـ مـنـ الـأـلـهـ يـأـمـرـهـاـ بـأـنـ تـرـسـلـ حـلـةـ إـلـىـ تـلـكـ الـأـرـضـ الـمـنـسـيـةـ «ـسـعـ أـمـرـ الـأـلـهـ فـيـ الـمـعـدـ بـأـنـ الـطـرـيقـ الـمـوـدـيـةـ لـبـنـتـ يـنـبـغـيـ اـسـتـكـشـافـهـاـ وـأـنـ الـطـرـيقـ الـمـوـصـلـ لـأـشـجـارـ الـبـخـورـ يـحـبـ اـنـ يـمـدـ لـلـسـيرـ»ـ

وـطـاعـةـ هـذـاـ الـأـمـرـ جـهـزـتـ الـمـلـكـةـ أـسـطـوـلـاـ صـغـيـراـ ، وـمـلـأـتـهـ بـنـخبـةـ مـنـ الـمـلاـحـيـنـ وـكـانـ شـهـرـ مـنـدـوبـهـاـ ، وـأـبـحـرـتـ السـفـنـ فـيـ الـبـحـرـ الـأـحـرـ لـلـبـحـثـ عـنـ الـأـرـضـ الـمـقـدـسـةـ . وـقـدـ حـمـلـوـاـ فـيـ السـفـنـ بـضـائـعـ مـصـرـيـةـ عـلـىـ أـمـلـ أـنـ يـبـادـلـوـهـاـ بـكـنـوزـ بـنـتـ .

ونحن نجهل الزمن الذى استغرقه الاسطول فى البحث عن الأرض المجهولة ، وقد كان السفر في البحر في تلك الاذمان محفوفاً بالمخاطر والاهوال ، ولكننا نعلم ان السفن وصلت آمنة

وأول ما رأوا أمامهم منازل البحترين وكانت مبنية على تلال حتى انه لا يمكن الصعود إليها إلا بواسطة سلام ، وكانت ضيقة وملتصقة مثل خلايا النحل ولم يكن سواد الأهالى زنوجا ولو أنه وجد ذلك العنصر بينهم ، وكانوا على العموم يشبهون المصريين في مظاهرهم . لهم لحى طويلة وعل أجسامهم جلود الاسود وترتدى النساء ملابس صفراء بلا أكمام وتنصل أطرافها إلى وسط الساق

وقد نزل « نبيسى » نائب الملكة إلى البر ومحبه ضابط وثمانية من الجنود ، ولكن يبين أنه آت في حلة سلبية قدم لرئيس البحترين بعض المهدايا كالحراب والسيوف والخناجر الذهبية ، ومثل هذه المهدايا يقدمها المستكشف الاوربى الآن إلى رئيس القبيلة الافريق

وقدم الأهالى من جميع الجهات ليشاهدوا الغرباء وسفنهم وهداياتهم الدهشة وسألوا المصريين

« كيف وصلتم إلى هذه الأرض وهي مجهولة من جميع الناس ، هل جئتم عن طريق السماء أم عن طريق البحر المقدس ؟ »

وتقدم إلى المصريين الحاكم واسمه « باريهو » وأمراته « آقى » وابنتهما وكانت روجته راكبة حاراً فنزلت عن ظهره لتأمل الأغراض ، ولاشك ان المدار حمد الله على ذلك لأن المرأة كانت في غاية السمن والضخامة . وكذلك كانت ابنتها على صغر سنها

وتتبادلوا مع رسول الملكة السلام . وابتدا المصريون في العمل . فضرروا خيمة كبيرة ليعرضوا فيها بضائعهم وقد وقفت بجانبها بعض الجنود ليدفعوا من يفكرون في السلب والنهب ، وفتح السوق جملة أيام والأهالى تبادل كنوز بلادها ببضائع المصريين فقررت السفن المصرية ثم ملئت ثانياً بسكوز بنت وهي الذهب والابنوس ، والقرود ، وجلود النمر والأسد ، وأخشاب البخور والصمغ . وعاد من المصريين على سفينهم كثير من نبلاء ، بنت ليشاهدوا البلاد التي لم يسمعوا عنها — مصر القديمة

ولم يكن الرجوع سهلاً خاصةً وان السفن كانت مقلة بالكنوز والرجال.

ووصل الاسطول الى طيبة عن طريق قناة توصل بين البحر الاحمر والنيل وقد سر جمجم المصريين بنجاح الحملة فكان يوم وضوها الى طيبة يوم احتفال عظيم اشترك فيه جميع المصريين على اختلاف طبقاتهم، وخرج الاهالى في صفوف منتظمة يستقبلون الجنود المستكشفين، وقاد الاسطول المستكشف أسطول ملكي

الى رصيف المعبد حيث رست السفن كلها واستطاع الطيبيون أن يروا الكنوز التي أتى بها المستكشفون، وكانت دهشتهم عظيمة عندما وقعت أبصارهم على البتينين، ولفت أنظارهم خاصة زرافة أحضرها المصريون معهم، وقد يتسامل كيف حلت الزرافة المسكينة التي أثارت دهشة المصريين برقتها الطويلة ويقع جلدتها الجميلة وقد وضعوا البخور في المعبد بعد ان وزنته الملكة بنفسها بميزان مصوغ بالذهب والفضة وهكذا انتهت الرحلة بالنجاح والفوز، ولكنها لم تكن كل أغراض الملكة بل ولم تكن نصفها

كان والد الملكة قد ابتدأ في تشييد معبد في مكان يبعد عن طيبة عدة أميال على مقرية من اطلال معبد متخرب، ولكن الموت حال بينه وبين اتمامه فأخذت الملكة على عاتقها هذه المهمة وابتدأت في العمل وقام البناء وكان على طراز جديد مختلف للمعابد المصرية التي سبقته

ففي جهة الامامية بناوا على رمال الصحراء طبقات مدرجة من الأرصفة كل واحدة تعلو على سابقتها ومحدودة على الجانين بأعمدة مرتفعة ويرتدي ذلك البناء المدرج الى الحجرة المقدسة المنحوة في الصخر الشاهق

وكان قد شيدت المعبد ليكون «جنة آمون» وهو الرب الذي أوحى اليها بارسال الاسطول للاستكشاف، وغرست حول المكان المدرج الساق الذكر شجر البخور الذي أحضرته من بلاد بنت ولکي يهشاوا له الحياة المستديمة فقد حفروا بالقرب منه بئرآ في الصحراء لتروي منها الاشجار

وأمرت الملكة بنقش قصة الرحلة على جدران المعبد في شكل صور مختلفة تمثل الرحلة من مبتداها الى متهاها فانت تستطيع أن ترى السفن وهي تجاهد أمواج البحر في سبيل غرضها المجهول ومقابلة المصريين بال بتينين تم المبادلة التجارية ونقل المواد الى السفن، ثم

المواكب العظيمة من الجنود المصرية التي استقبلت رجال الاسطول المتتصرون ولم ترك صغيره إلا صورتها وبفضل دقتها ودقة حفارتها علينا كيف كانت حياة البحارة وأعمالهم في تلك الازمان ، وكيف كانت المعاملات التجارية في الاراضي الغربية ، وكيف كانت تعيش القبائل في البلاد المتتوحشة والعادة الآن أن الرحالة يضمن ملاحظاته عن البلاد التي جابها ويجمع صوراً عن أغرب المشاهدات فيها في مجلد كبير ينشره بين مواطنه ، ولكن واحداً منهم لم ينقش قصته في نقشتها المسكونة حتى ينسوت واحداً منهم لم يزن كتابه بصورة بلغت من الدقة والجمال ما يبلغته هذه الصور التي ظهرت للوجود حديثاً بعد ان طویت قرونا عدة وقد تركت الملكة بعد موتها غير المعد وقصة الرحلة ما يكفي وحده لتخليد ذكرها على عمر العصور

وهي تخبرنا كيف أنها كانت جالسة يوماً في قصرها تفطر في خالقها حين لاح لها فؤاده ان تشييد مسلتين أمام معبد السكرنوك — وقد أمرت بتنفيذ الفكرة وفي الحال سافر مهندسها المأهور سن مت إلى أسوان وقطع من حجر الجرانيت ما يكفي لتشييد المسلتين وأتى به عن طريق النيل

ويبلغ ارتفاع مسلة كلبيوطرة المقاومة على ضفاف التيمز ثمانين وستين قدماً ونصفاً ، ونحن نظن أن مثل هذه الكتلة لا تستطيع صنعها يد بشر . ولقد تكافف مهندسونا الشئ . الكثير في نقلها إلى هنا وإقامتها حيث هي على شاطئ التيمز

أما هاتان السلطان اللتان شيدتهما حتشبسوت فلا يقل ارتفاع الواحدة منها عن ثمانية وتسعين قدماً ونصف وترن كل منهما ثلثائة وخمسين طناً ، ومع ما وصفنا فقد استغرق المهندس المصري في نقل الحجارة من أسوان إلى طيبة وفي صنعها

سبعة أشهر !!

ولا تزال أحداها باقية إلى الآن في السكرنوك وهي أطول مسلة في المعبد . أما الأخرى فقد تهدمت وتكونت اطلالها بجانب المسلة الباقية وهو تدللات دلالة واضحة عمما كان عليه المصريون من التقدم العقلى والفنى في عهد تشييدها ولو بما كان الآله الذى تعبده الملكة والذى كانت تفكر فيه في قصرها — قريباً

من قلب خادمته حقيقة

الفصل الحادى عشر

الكتاب المصرى

إن لم يكن المصريون هم أول من دون أراده بالكتابة - وبعبارة أخرى أول من اخترع الكتب فقد كانوا بلا ريب بين أولئك من اخترعوا هذا الفن وإن أحد كتبهم - المعلوم بالحكم والنصائح يسديها أب لابنه - هو أقدم كتاب الدنيا جمِيعاً

ونحن كثيرون ما نستعمل كلتين جديتين بأن يذكرانا دائماً بفضل المصريين القدماء أو هما « The Bible » ومعناها الكتاب والثانية « Parer » ومعناها الورق، ونحن أن كتبنا الأولى فاننا نستعمل كلة من الكلمات الأغريقية التي اطلقت قدماً على النبات الذي اخترع منه المصريون لكتبهم « يعني ورق البردى » وإذا كتبنا الكلمة الثانية فاننا نستعمل اسم آخر - وهو الاشيع لنفس النبات لأن المصريين كانوا أول من صنع الورق وقد استعملوه قرولاً قبل أن يعرفه الناس. ومن ذلك فلو رأيت كتاباً مصرياً قدماً لعجبت من شكله ونظامه ولعلت أنه يختلف كل الاختلاف عن كتابنا الجميلة التي نمسكها بقبضة يدنا ونطالعها

كان المصري إذا أراد أن يصنع كتاباً باجمع سيقان البردى الذي ينمرف بعض جهات القطر التي تسكتنها المستنقعات، وهذا النبات ينمو لارتفاع اثنى عشر قدماً وقد يبلغ خمس عشرة قدماً، أما سبك سيقانه فلا يقل عن ست بوصات . وكان يقشر الجزء الخارجي من الساق، ثم يقطع الجزء الباقي قطعاً طولياً إلى طبقات رقيقة بآلة حادة . وتوضع هذه الطبقات لجانب بعضها حتى تتصل أطرافها ثم يراق الصمغ على سطحها الأعلى ثم يأتى بطبقة أخرى ويضعها عرضاً على الجزء الأعلى من الطبقة الأولى ، ثم تضغط الطبقتان وتتحففان

ويختلف اتساع العرض تبعاً للغرض الفني الذي صنعت الأوراق له . واعظم عرض عثر عليه لآن لا يزيد على سبع عشرة بوصة ومعظم النسخ الأخرى أضيق من ذلك

فإذا انتهى المصرى من صناعة ورقه فإنه لا يجتمعه ملازم ويغلفه كما تفعل الآن ولتكنه يوصل الورق من الطرف الأعلا ثم يكتب فان احتاج لورق الصق ورقة بورقة وهكذا . ويلف الجميع ان اراد ان يسير وكتابه في يده . وعليه فالكتاب كان لفة من الأوراق قد تبلغ - أحياناً - عددة اقدام طولاً . وعندي في دار الآثار البريطانى كتاب مصرى طوله مائة وثلاثون وخمس اقدام ونحن نعجب من الكيفية التي كانوا يحملون بها امثال هذا الكتاب

ولكن الأغرب من الكتاب نفسه هو ما يتضمنه من الكتابة التي تعد بحق أغرب الكتابات كلها وربما أجملها أيضاً ، ونحن نسميها « الهiero-غليقية » ومنها النقش المقدس » وهي عبارة عن صور صغيرة : و كان المصريون في أول عهدهم بالكتابة يرمون الكلمة التي يرغبون في التعبير عنها بصورة المعبّر عنه ، وبعد تمارسة ذلك الفن عهداً تمكّنوا من وضع حروف هجائية ووضعوا علامات تمثل مقاطع الكلمات ولم تكن هذه العلامات إلا صوراً صغيرة . فثلاً ثانت أحدى علاماتهم للحرف P وجه نسر وعلاً ماتهم للحرف M أسا

فإذا تصفحت كتاباً مصرياً مكتوباً بالهiero-غليقية رأيت سطوراً من الطيور والحيوانات والزواحف والرجال والنساء والقوارب وجميع الأشياء الأخرى تسير في الصحيفة

وكان إذا أراد المصريون أن يخلدوا ذاتتهم تركوا أوراق البردى الواهية وكتبوا في كتب مختلفة اختلافاً تماماً عن البردى وأوراقه

لابد أنك سمعت عن انسانح المقوسة على الاحجار ، وفي الواقع أن معظم الكتابة المصرية التي تخبرنا عن الفراعنة وأعمالهم منقوسة على الاحجار . نقشت في وضوح وعمق على سطوح المسلات وجدران المعابد وكانت العادة أن الملوك إذا رجعوا من أحدى الحروب نقشوا وصف المعارك وما لاقوه في الذهاب والإياب على جدران أشهر المعابد في أيامهم أو على الأعمدة المقامة في تلك المعابد حيث بقيت إلى الآن وهي على حالتها الأولى ليقرأها الباحثون

وكان إذا نقشت الهiero-غليقية على الحجارة طبعت الخطوط بالألوان

لختلافة حتى ان الكتابة كانت تظهر مثل لب من جيم الالوان الخفيفة و تظهر
لجدران فا لو كانت مغطاة بستائر ذات الوان جميلة
ولقد نصت الالوان الان ولكنك تستطيع ان تشاهد اثرها واضحا في بعض
المعابد والقبور . ومن - شرحى هذا - تستطيع ان تتصور ما كانت عليه هذه
لكتابة من الجمال والرونق
وكان الكتابة والمخارون عالمين بمكانة فنهم من الجمال والحسن لذلك لم يألوا
جهدا في ابرازه في شكل جميل جذاب

وبلغ اعتناقه بالجمال انهم كانوا إذا وجدوا ان الصور التي تسكون منها
كلمة أو الجمل تظهر قبيحة المنظر بسبب انصافها وترابطها حذفوا الصور التي
تقبح منظر الصفحة وضخوا بصحبة هجاء الجمل في سبيل ابرازها في نسق جميل
ونحن نخطئ احيانا في هجاء بعض الكلمات ولكن ليس الداعي في ذلك ان
تسكونها في صورة جميلة طبعا ! والآن نعود ثانيا إلى لغات البردي ، ولنفرض انه
فرغ من صناعتها وانها أصبحت مهياً للكتابة ونحسب أن نعلم كيف كان الكاتب
يقوم بعمله

اهم ادواته صندوق خشبي طويل وضيق جدا ، وهو يختلف عن ريشة المصور
وهو عبارة عن كتلة خشبية في وسطها تجويف طويل . وحوله تجويفان أو ثلاثة
أقل غورا واضيق من التجويف الأول . ويوجد في هذا التجويف اقلام
قلائل مصنوعة من قصب دقيق مرضوضة من نهاياتها كالفرشاة ويوضع في
التجاويف الأخرى حبر اسود وهو يستعمل في معظم الكتابة وأحمر وتسكتب
به بعض الكلمات . وربما أضاف الكاتب لوقت آخرين لتسخون الكتابة في أبهى حالة
ويجلس الكاتب القرفصاء ويغمس قلبه القصبي في الحبر ثم يكتب
وهو إذا كتب اجزاء مهمة في الموضوع استعمل لوما زاهيا
والآن نستطيع أن نفهم ان الكتابة بالصور لم تكن أمرا سهلا خاصة وانه لم
لم يكن مع الكاتب إلا قلم من البوص
ولتكن على مرور الزمن تطورت الكتابة وأخذت في النقصان والصغر حتى
اكتيرا اخيرا ان برمزاوا علامات تدل على « المعبر عنه » بدلا من رسم صورته

ومع هذا أصبحت الدّاتاة الهيروغليفية سهلة التدوين . ككل الكتبات وقد كتبت كثيرة من المؤلفات باللغة الجديدة و كانوا يسمونها اللغة «السكنوتية» أو الهيراطيقية ولكن جزءاً كبيراً من الكتب العظيمة كانت تكتب باللغة القديمة ولقد ترك المصريون في لغات البردي عصارة افكارهم و مشاعرهم و خلاصة تجاربهم . فمن النصائح الحكيمية إلى القصص الخرافية - وقد أوردنا بعضها - إلى اساطير الآلهة وكذلك وصف الاسفار والرحلات وغير ذلك بما ليس له حصر وأهم كتاب في هذه الخلافات يختضن بالديانة المصرية . واسمه كتاب الموتى والبعض يدعوه الانجيل المصري . وليس هذان الاسمان صحيحين وهو - مهما كان - لا يشبه الانجيل . ولقد سماه المصريون « فصول عن البعث » والسبب في وضعه هو اعتقاد المصريين بأن من يقرأ نصائحه يأمن اخطار الدنيا الأخرى وكان الكتاب ينسخون من الكتاب اعداداً كثيرة يحفظونها كرأس مال احتياطي . وكانوا يتركون في بعض الصفحات مسافات خالية وهي التي تشمل أسماء الاموات الذين يشترون الكتاب في أثناء حياتهم وكان إذا مات مرد - لم يكن قد اشتري الكتاب - يذهب أحد أهله إلى كاتب ويشترى نسخة من كتاب الموتى ثم يملأ الامثلة الخالية باسماء الميت . وينبغي دفن الكتاب مع الميت في قبره حتى إذا اعترض طريقه إلى السماوات . حيّات أو أرواح نحبّة استطاع - بما هو مكتوب في الكتاب - أن يدفع شرهم وينحيهم عن طريقه وإن قامت في طريقه العقبات كوجود بعض الأبواب التي يتعرّد عليه فتحها ويبلّغ منه المرور منها لمواصلة السير أو لوجود بعض الامواهات التي لا يمكنه عبورها فإنه بعد تلاوة الكلمات السحرية الموجودة في الكتاب يتمكن من تذليل كل هذه "صعبات" وقد كتبت بعض هذه النسخ باتفاق وجمال المعاحد الكتاب وشرحت بصورة صغيرة هي غاية في الدلالة والتنسيق ، ولهما تتمثل نواحي مختلفة من حياة العالم الثاني ومن هذه الصور تمكنا من معرفة عقائد قدماء المصريين عن الحساب بعد الموت وعن السماوات

ولكن باق النسخ مكتوب باهمال لأن الكتابة كانوا يعلمون أن مصيره ، الكتاب - الذي يسخرون في كتابتها - الدفن مع الميت حيث لا يمكن أن تقع عليها عيناً انساناً وعليه فلم يعتنوا في كتابتهم ولم يروا بأمساك وجود غلطات

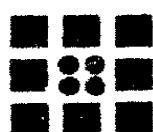
كثيرة بل كان يبلغ الامال بهم أحيانا الى حذف بعض فصول برمتها من الكتاب ولم يكن يدور بخلدهم أنه بعد موتهما بآلاف الاعوام ستتبش القبور ويستولى على ما فيها ويظهر اهمالهم للملائكة

وما لا ريب فيه أن كثيرا مما يتضمنه هذا الكتاب سقط وسخف - وهي أبعد ماتكون عن تعاليم الانجيل النبالة - وسانقل للقاريء فصلا موجزا ليحكم بنفسه :

« فصل في دفع خطر الشعابين »

كان المصريون يعتقدون أن الميت لا يحتاج للنجاة من الشعبان اذا اعترضه في طريقه الى السماء إلا أن يذكر هذه الجملة وهي كفيلة بأن تخل قوى الشعبان ليتمكن الميت من السير بأمان . وهذه الجملة هي

« تحية أيها الشعبان ، لا تتقدم من مكانك ، قف حيث أنت وسوف تأكل جرذا يكرهه رع « رب الشمس » - وسوف تمضغ عظام قطة قدرة » هي حماقة ليس الا ، وتوجد فصول أخرى لا تقل عن الفصل السابق غباء وبلادة وانى أعجب كيف كان أناس يعقلوا كالمصريين يعتقدون في هذه المخزعبلات ولكن بجانب هذا السخف بجد فصولا تحوى أفكارا غاية في السمو والجلال كما أنها أوحىت اليهم من الله نفسه . واهم هذه الافكار هو اعتقادهم بأن الإنسان يحاسب على أعماله في الدنيا - بعد الموت - وأن الآلهة لا رحم في الآخرة الا الذين عدلوا ورحموا وتواضعوا وخضعوا لا وامرها



الفصل الثاني عشر

المعبود والقبور

ان السائح الذى يجوب بلادنا انجلترا المشاهدة الآثار القديمة لا يجد أمامه الا كنائس وخصوصاً الكاتدرائيات الفخمة وهناك القصور العظيمة التي كان يسكنها الملوك والأمراء والتي كانوا يتخذون منها قصوراً تأويهم وخصوصاً تدفع عنهم شر أعدائهم

ولكن الاسر يختلف اذا كان هذا السائح يجوب أرض مصر يوجد عدد وافر من الكنائس او بالحرى المعابد وهي غاية في الابداع والفخامة أما الحصون والقصور فلم يبق منها شيء وبدلاً منها توجد القبور . وفي الحق أن مصر بلد المقابر والمعابد لأنها لما كان الشعب المصرى عظيم الدين يخص آلهته بكل تبجيل وتقدير . فقد اكثروا من تشييد المعابد لها

ولكن ما السبب في تلك العساية الموفورة التي وجهوها الى بناء القبور ؟ السبب في ذلك - وسنسرحه شرعاً وافياً في فصل قادم - أنه لم يوجد شعب آخر الحياة الآخرى على الحياة الدنيا كالشعب المصرى القديم فهم كانوا يبنون منازلهم وقصورهم بأخف المواد كالخشب والصلصال مما منهم بأن تعميرهم فيها لن يطول . أما قبورهم أو المسارك الأبدية كما كانوا يسمونها فقد شيدوها باعتناء ودقة حتى خلدت على الدهر وأصف لك الآن معبداً وهو في أكمل صورة - أى كما كان وقت تشييده . والناس يقصدون مصر الآن من جميع أنحاء الدنيا ليشاهدو خرائب تلك المعابد وهم يعودونها - كما هي الآن - من أغرب ما خلف العالم القديم بل هي تعد من غرائب فن البناء في الوقت الحاضر

وهي الآية لا تزد عن أن تكون الهيكل العظمى للمعبد الأصلية ولا تدل على الأصل القديم إلا بقدار ما يدل الهيكل العظمى على لجسم الإنسان في جهاته، وحياته.

هب الآن أنا قادمون نحو مدخل معبد عظيم رحب أن المعبد لا يزال مقراً لرب من الأرباب تعددآلاف من البشر
فإذا تركنا الشوارع الضيقة المؤدية للمعبد نجد أنفسنا واقفين في طريق
عمدة تتدأ أمامنا مئات الأقدام وعلى جانبي ذلك الطريق يوجد صفائ من
تماثيل أبي الهول ذات أجسام الأسود ورؤوس البشر أو أي مخلوق آخر
بعض أبواء الهول لها رؤوس إنسان مثل أبي الهول الكائن بجانب المحرم،
ولكن التي توجد على جانبي طريق المعبد يكون لها في الغالب رأس كبش أو
رأس ابن آوى

وتقى بها يه الطريق يرى السائر برجين عظيمين بينهما مدخل المعبد الكبير،
وأمام كل برج من برجي المعبد تقف مسلة عظيمة منحوتة من حجر الجرانيت
وهي أشبه شكلًا كلياً باطرة المقاومة على ضفاف التيمز، وكل مسلة منقوشة
نقشاً بديعاً ومكتوب عليها باللغة الهieroغليفية والصور مطعمة بالألوان الجميلة
الزاهية

وقة المسلة مصوحة بالذهب بما يجعلها تتلاًّلا تحت أشعة الشمس المرسلة
وبجانب كل مسلة يوجد تمثال أو تمثالان للملك الذي أمر بتشييد المعبد.
والتمثال يصور ملك مصر حالساً على عرشه، وأوضاعاً على رأسه تاج مصر المزدوج
الأبيض والأحمر

وانك حين تنظر إلى وجه الملك تتعجب كيف استطاعت أيدٍ نشرية أن
تنحت من الأحجار الصماء وجهاً ماطقاً بالغاً حد التمثال في تمثيل مقاطع الوجه
مثل هذا

ولا يزال إن الآن بقية تمثال رمسيس الثاني قائماً أمام أحد معابد طيبة،
ولما كان هذا التمثال جديداً كان ارتفاعه سبعاً وخمسين قدماً وكان وزنه
ألف طن وهو أعنده كتلة حجرية أخرجتها يد البشر، وعلى كل برج متباين

عمودان في نهاية كل منها راية مزينة بالألوان
أما جدران البرج فكلها صور تمثل الملك في أثناء حربه ، فهنا تراه مطارداً
في عربته وهذا تراه يمسكاً ببعض الأسرى من شعورهم ورافعاً سيفه ليقتلهم
وهذه الصور تظهر الملك قوياً وأعدائه مستضعفين أما أسرى ولاما هاربين
ووجهة المعبد مزينة بالألوان مزданة بالنقوش — وهي على العموم بما فيها
من نقوش ورموز تاريخية تاريخية تصورى لحكم الملك

حن الان واقفون أمام باب المعبد المصنوع من خشب الأرض والذى
لا تستطيع أن تتبينه لما عليه من النقوش والصور المزينة بالألوان

فإذا دخلنا من الباب رأينا أمامنا بهواً عظيم الاتساع وهو يشبه الدير
وسقفه مقام على أعمدة طويلة منقوشة ، وهى منحوتة على قد المدخل وتكلها ، وفي
وسط المكان يرتفع عمود عظيم منقوش على سطحه أعمال فرعون وصوره
وهو يقدم المدايا لرب المعبد ، وهذا العمود مزين بالاحجار الكريمة

وفي نهاية البهو يرى الداخل برجين يينهما باب ، وهذه الوجهة تشبه الوجهة
الخارجية وهى تؤدى إلى بـ آخر ؛ وإذا اجترت هذا الباب وجدت نفسك في
بـ آخر يكاد يكون مظلاً لأن النور لا يصله إلا من الباب — السابق الذكر ومن
طاق ضيق في السقف ، وهذا البـ هو أوسع حجرة شيدتها يد البشر

وفي وسط المكان يوجد صحنان من الأعمدة التي ترفع السقف ، وهى تلانون
حن البـ وحول ذلك غرفات ضيقة مرفوعة سقوفها على أعمدة صغيرة عديدة
متراصة

والأعمدة التي تكون صحن البـ ترتفع فوق رأسك سعين قدماً في الهواء
ورقوسها منحوتة على غرار زهرة مفتحة . ومساحة قاعة تسمى مائة رجل
كيف أحضروها إلى هذا المكان وكيف صنعواها على هذا الارتفاع العظيم ؟
وكانت الأعمدة مغطاة بالنقوش والصور كما قدمنا وكذلك كانت جميع
المجدران المحاطة بالبـ ، ولكن ليست هذه الصور تهـل الحروب لأن ذلك
المكان أقدس من أن يرسم فيه أمثل هذه الصور
بدلاً من ذلك ترى صورة الآلهة وصور الملوك تهدى إليها المدايا وهي

كثيرة متعددة لأن كل هدية كان يقدمها الملك كانت تتشق صورته وهو يهدّيها

وأخيراً نصل « إلى قدس الأقداس » وهي حجرة أصغر حجماً وأخفض سقفاً من البوين السابعين والنور لا يجد إليها منفذأً وعلى ذلك فهى في ظلام دامس ولو لا شاعر المصباح الذى يمسك السكاهن وهو يقودك لما استطعت التقدم خطوة واحدة

هناك يوجد المقام المقدس وهو مأوى يسكنه رأس الآله . وهذا المقام منحوت من الجرانيت ، وله ابواب من خشب الارز وهى مغلقة دائمًا ولو استطعتا فتحها لوجدنا تمثالا خشبياً كهذا الذى رأيناه محمولاً مختلفاً به في شوارع طيبة ، وعليه أثغر الثياب وحواليه المدایا والماکولات والمشروبات وما ذلك الا لآلهة الخالق لكل ما وصفنا لك من عظمة هذه الامة القدیمة ويوجد جيش من السکنه يقومون بخدمته ليل نهار ، يزینونه بالنقوش ويقدمون له الطعام والشراب والضحايا يتربّعون مدحه وعادته

وخلال المعبد توجد مخازن مفعمة بالمحبوب والفواكه والنبيذ وهي كفيلة بتمويل مدينة كبيرة في أثناء حصار عصيبي . والاله - فوق ذلك - مالك من أغنى الملائكة من الاراضي الواسعة ما ليس لنبيل أو عظام ، وبوازى دخلة دخل فرعون نفسه . وله جيشه الخاص الذى لا يأمر إلا بأمره وكذلك أسطول فى البحر الآخر ويحمل إليه المخور من الاراضي الجنوبية . وأسطول آخر فى البحر الابيض يورد إليه الملابس و الخشب الاردنى من لبنان

وطبيعي أن يكون الكهنة في منزلة من القوة والسلطان دونها جميع الامراء والسلاء ، بل لقد كان فرعون نفسه لا يقدم على اغتصابهم ولفوذهم الذي قـ.ـيهز^١ ركان عرشه وهذا كان المعبد المصرى منذ ثلاثةآلاف سنة أى في الوقت الذى كانت فيه مصر مديدة الارض ، ومع ما وصفت لك من جمال المعابد وفخامتها فإن ذلك كله لا يهدى إلا لو قابلناه بجمال القبور وعظمتها

لقد دفع المقربون اعتقادهم الراسخ بالحياة السفلية إلى تشييد قبور خالدة تحفظ
جسادهم على مرور لاعيام والاجيال حتى أن الملوك الذين حكموا القطر

قبل بده التاريخ حفروا لأنفسهم قبوراً حصينة في باطن الأرض ووضعوا فيها من الإناث والاطعمة كل ما اظنوا أنهم يحتاجون إليه في حياتهم السفلية ولكن أعظم مثل للقبر المصري للقدس في العظة والفحامة هو ما بني في عهد خوفو الذي خير تلك عنده في خرافات زار آمانة ودیدی على مقربة من القاهرة — عاصمة مصر في الوقت الحاضر — يرى أعظم ما ترک السلف من الابنية ، ترى الاهرام — قبور ملوك مصر القدماء — وان من يشاهد هذه القبور يدرك ما كان البناؤون المصريون عليه من المقدرة قبل الميلاد باربعة

آلاف من السنين

وأكبر هذه الاهرام هزم كيوپس وهو خوفو الذي ورد اسمه علينا في الخرافات السابقة ولم يعشيد مثله فيما مضى قبل زمن تشييده ولا بعد ذلك حتى أيامنا هذه . ويقدر ارتفاعه بأربعينات وخمسين قدمًا وقد هدم جزء من قمته يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدمًا ويبلغ طول الجانب الواحد من جوانب قاعدته خمساً وستين قدمًا ، أما مساحة الأرض الذي يشغلها فيقدر باثنتي عشر فدانًا . وهذا اتساع حقل جبل الهرم ولكل أقرب إلى ذهنه صورة من عظمته أقول أنه لو استعملت أحجاره للبناء لكفت لتشييد مدينة تسمى سكان ابردين ، ولو قسم كل حجر من أحجاره إلى أحجار مكعبية لا يزيد ضلع الواحد منها عن قدم ؛ م رصت هذه الأحجار في خط ، لتجاوز هذا الخط نصف محيط الكرة الأرضية . ولكن الصعوبة في كسر الأحجار لأن معظمها يزن من أربعين إلى خمسين طنا

وجميع أحجار الهرم متلاصقة بعضها البعض بحيث لا يمكن ادخال ما يساوى سمكة سلك صفحة كتاب رقيقة بين حجرين وفي داخل ذلك الجبل العظيم توجد ممرات تؤدي لحجارات صغيرة ومن هذه الحجارات « حجرة الملك » ، وفيها كان يرقد الملك أعظم بناء عرف من بده الخليقة ؛ وكانت الممرات مسدودة بكتل حجرية عظيمة حتى لا يزعج الملك في رقادته منطفل

ولكن رغم كل هذه المخوايل وجد اللصوص طريقهم إلى حجرة الملك وسرقوها التاivot وتركوا جثة الملك العظيم تذروها الرياح ، كما قال الشاعر بيرون « لم يبق من كيوپس ولا قبضة تراب »

أما باقى الاهرام فاصغر من الاول وأقل ضخامة منه ولكن ما لاريب
فيه أنه لو لم يوجد الهرم الاكبر لعدت من عجائب الدنيا
ويوجد بجانب الهرم الثانى تمثال أبي الهول وهو تمثال ضخم له جسم أسد
ورأس انسان ، ونحن لا نستطيع ان نجزم بمعرفة ناحته ولا السر في تصويره على
هذا الشكل . وهو رابض في مكانه منذ أجيال عديدة كأنه يحرس قبور الفراعنة
ويقدر ارتفاعه بسبعين قدما وطوله بعاتى قدم
وهو أغرب تمثال نحته يد الانسان

وبعد مرور أعوام عدة تعب الملوك من تشييد الاهرامات وتغيرت عاداتهم
فبدلا من ان يرفعوا القبور إلى هذا الارتفاع العظيم حفروها في الأرض لحفظ
رفاتهم . وعلى ضفاف النيل الغربية عند طيبة توجد هذه المقابر وهى تتعدد
ظهورها في التلال مثل خلايا النحل . وجدان هذه القبور مزينة بالصور ومنقوشة
بالماء والغليسيرين ، وتمثل صورها حياة الملك في مظاهرها المختلفة
فهي صورة تراه جالسا وبجانبه زوجته ومن حولهما الخدم وهم يقومون
بأعمالهم المختلفة ، يرون الأرض ويبدرون البذور يجمعون الكروم أو يصنعون
النبيذ ، وفي صورة أخرى ترى صاحب القبر وهو ذاهب إلى السوق يشتري حوانجه
وجملة القول أنه بعد التأمل في هذه الصور يمكننا أن نعرف أسرار الحياة
المصرية في ذلك العهد ، وفي الواقع أن معظم معلوماتنا عن المصريين القديمـاء
وأحوال مجتمعـهم مستمدـة من هذه القبور وأمثالها

وفي أحد الوديان الضيق المسماـي « وادى الملوك » دفن كل الفراعنة المتأخرـين
تقريـباً . ومقابرـهم الآن من أهم ما يذهب السائح من أجله إلى طيبة
وسوف أصف لك أجملـها وهو قبر سقى الأول والد رمسيس الثاني الساقـ الذـكر
تدخل الباب الصخـرى فتجـد نفسـك في ظلام . ولا تترك عـرات إلا لتسـير في
آخـرى حتى تصلـ إلى الحجرـة الرابـعة عشرـة ، منزلـ أو زورـيس الـذهـى . وهـى على
بعد أربعـمائة وسبـعين قدـما من المـدخل ، وفيـها يـرقدـ الملكـ في تـابـوتـه الجـميلـ وجـميعـ
الـجـدرـانـ والأـعمـدةـ منـقوـشـةـ وـمزـينةـ بـالـأـلـوانـ وـالـصـورـ

وـبعـضـ هـذهـ الصـورـ — وهـىـ المرـسـومـةـ عـلـىـ الأـعمـدةـ — تمـثلـ الملكـ وـهـوـ يـقدمـ
الـهـداـياـ لـلـآـلهـةـ أوـ تـصـورـ الآـلهـةـ وـهـىـ تـرـحـبـ بـالـمـلـكـ . أماـ الصـورـ الـتـىـ عـلـىـ الـجـدرـانـ

فهي في غاية الغرابة : لأنها تمثل رحلة الشمس . في مملكة الدنيا السفل ، وتبين جميع الصعوبات التي تلقى الروح في اثناء سياحتها في الشمس . والروح الشريدة تتبعها الحيات والوطاويف المسلحة بالحراب . وهي ترسم سى . الحظ الذى يقع تحت رحمتها أقسى أنواع العذاب فتمزق قلبه وتقطع رأسه او تضعه في قدر تغلى أو تعلقه من قدميه وتترك رأسه يتدلل في بحيرة من نار

وتدخل الروح - اذا تخلصت من هذه الاخطار - في حقل الرحمة - حيث تجني ثمار افعالها الطيبة في الدنيا . وحيث تناول السعادة الابدية ، وفي نهاية الرحلة يصل الملك وترحب به الآلهة في « مسكن السعداء » حيث يعيش عيشة الله في حياة أبدية

والتابوت الذى كان يرقد فيه سيى موجود الان بدار الآثار بلندن ولما اكتشف كان فارغا ولم يعثر على جثة الملك حتى سنة ١٨٧٢ اذ وجدها بعض لصوص المقابر المحدثين (نهى المستكشفين) خفية في حفرة عميقه بين الصخور ومعها جثث ملوك آخرين

وهو الان في دار العاديات بالقاهرة و تستطيم أن ترى وجهه و ملامحه ولم تغير كثيراً عما كانت عليه لما حكم قبل الان بثلاثة آلاف و مائة سنة
وفي هذا المتحف يمكن رؤية تحتمس الثالث أعظم ملك حرب في مصر و رمسيس الثاني . مضطهد بنى اسرائيل ومنفتح الذي كفر بدين موسى ورفض طلبه بخروج بنى اسرائيل من مصر الذي غرق في البحر الاحمر وهو يطارد عبيده الفارين
كم يكون عجيباً لو استطاعوا احدى ان يرى الوجوه الحقيقية لابطال قصة الانجيل لقد كان المصريون يعتقدون أنه اذا مات انسان تنتقل روحه الى حياة أخرى وهي تحب أن تترجم الى جهنمان أرضي ويسراها أن تستقر في نفس الجسم التي كانت فيه قبل طلوعها إلى العالم الثاني . وان هدوء الروح واستقرارها في العالم الثاني يتوقفان بطريقة ما ، على حفظ الجسم سليماً

وطبيعي بعد ذلك ، أن يوجهوا عنائهم الى تخفيط الجثث . فكانوا ينفعونها أياماً في قار و طيب حتى تخنط ثم يلفونها في طبقات كثيفة من الكتان بهذه الطريقة بقيت الجثث دون أن يصيبها التلف أو التغير ، وكانتما كتب لها ان تسكن المتأسف وان يراها من كانوا همجاً يسكنون الغابات حين كانت مصر امبراطورية عظيمة ذات قوة وسلطان

الفصل الثالث عشر

قلواد المتصرين والمتهمين

أريد — في هذا الفصل — أن أشرح لك ما كان يظن قدماء المصريين عن السماوات، وأين توجد؟ وكيف يسكنها الناس بعد الموت وأى نوع من الحياة يعيشون فيها؟ وقد كان لهم أفكار غريبة عن كل ذلك كانوا يعتقدون مثلاً أن السماء الزرقاء صحن حديدي يشمل الفضاء الموجود فوق الدنيا ، وأن هذا الصحن مرفوع على جبال في أربعة أركان هي الشمال والجنوب والشرق والغرب ، والنجموم مصايبع معلقة في بطن القبة العظيمة وكانوا يتصورون أن حول العالم يجري نهر عظيم ، وهو الذي تسحب فيه الشمس يوماً بعد يوم في سفينتها مرسلة الانوار للدنيا ، ونحن نستطيع رؤيتها في أثناء سيرها من الشرق إلى الغرب أما بعد ذلك فيجري النهر خلف جبال شاهقة تحجب الشمس عنا ، وهناك تبدأ رحلة الشمس في عالم الظلام

ويتبع الشمس في سيرها القمر وهو يبحر في سفينة خاصة وتحرسه عينار لاتغفلان عنه أبداً ، وما يدعو لهذه الحراسة أن القمر يصطدم كل شهر ببعده لدود يظهر له في شكل خنزير ، في بحر أسبوعين يسير القمر مطمئناً ، يكبر ويستدير إلى أن يتصف الشهر — ويكون قد بلغ تماماً — فيتتمكن الخنزير من طعنه ويزحزحه عن مكانه ويطرحه في النهر فإذا خذ في النقصان والزوال حتى مستهل الشهر الثاني حيث تعود الحياة إليه رويداً رويداً

هذه هي أفكار قدماء المصريين عن دورة القمر وزيادته ونقصانه ، و كان لهم أفكار أخرى لا تقل عن هذه غرابة

لاأقصد ان أقول شيئاً عن اعتقادهم في الله ، لأنهم كانوا يعبدون آلهة كثيرة وكان لكل الله من هذه الآلهة مذاهب ومعتقدات خاصة ، واني أتعذر لوحولت أن أشرح لك كل هذه الديانات وما يتصل بها من المعتقدات المختلفة

وأهم ما يسترعى الانتباه حقا هو اعتقاداتهم عن الحياة التي يعيشها الناس في السماه بعد انتهاء حياتهم على الأرض فانه لم يوجد شعب من الشعوب كان يصدق ويؤمن بخلود الأرواح بعد الموت مثل المصريين ، وفوق ذلك كانوا يعتقدون بأن كل ميت يبدأ حياة جديدة يسعد فيها أو يشقى تبعاً لما كان يفعله في الدنيا من الخير أو الشر وعلى العموم كانت أفكارهم عن الدنيا السفلية مختلفة يصعب على العقل فهمها . وسأشرح لك أهم وأبسط هذه الأفكار
كانوا يظنون أنه في بدء تكوين الخليقة ، لما كانت الأرض صغيرة ، كان يحكم مصر ملك نبيل يدعى أوزوريس وكان عبأ للرعية قضى حياته في تعليمهم أنواع المعرفة المفيدة

وكان للملك أخ ترير حسود يدعى سيد يذكره ويحقد عليه ففي ذات يوم دعا سيد أخاه لتناول العشاء معه ، وكان قد جمع بعض رفقاءه ودبروا مكيدة ضد أوزوريس النبيل

وجلس الجميع ، وبينهم الملك ، يقصرون ويلهون ، حتى قام سيد وأخه بصناديق جميل ووعد بمنحة لمن يماثله طولاً وحجماً ، وقام كل واحد منهم يقيس نفسه على الصندوق طمعاً في احرائه دون جدوى ولما جاء درر أوزوريس انتظر المتآمرون حتى وضع نفسه في الصندوق – الذي صنع على قده – ثم أغلقوا بابه ورموا به إلى النيل ، وحلته الأمواج مسافات طويلة حتى رسا بجانب الشاطئ .

وكان لاوزوريس زوجة مخلصة هي ايزيس ، خرجت تبحث عنه في كل مكان حتى عثرت على الصدورة ، وجلست بجانبه تبكي زوجها المحبوب . ولكن فاجأها سيد وخطف الجثة من بين يديها وقطعها إرباً إرباً ونشرها في الهواء . فزاد ذلك في حزن ايزيس ، حتى هامت على وجهها تجمّع ماتناز من لحم زوجها وتتدفعه حيث تتجدد

وكان لايزيس طفل يدعى هوروس ، فلما كبر وصار رجلاً تبارز مع سيد وقتلته انتقاماً من والده . هنالك اجتمعت الآلهة وتبين لها من حاسبة الشقيقين ما كان أوزوريس عليه من الحق والمهدى وما كان أخوه عليه من الغى والضلال . ثم انهم رفعوا أوزوريس إلى مصاف الآلهة وعيشه قاضياً يحاسب الناس بعد الموت .

واستنتج المصريون من هذه القصة الاعتقاد بالحياة بعد الموت فقالوا
أوزوريس قد يبعث بعد الموت فان الذين يعيشون يعيشون كذلك ويعيشون معه
وتشبه هذه القصة ما ترويه الكتب المقدسة عن موت المسيح وبعثه حيابعدذلك
وكانوا يعتقدون كذلك أنه إذا مات الانسان على الأرض تصعد روحه —
بعد تخنيطه ودفنه — إلى أبواب قصر أوزوريس في الدنيا الأخرى حيث تحاسب
الآرواح في المحكمة الاطية، وكان لابد للروح من معرفة أسماء الأبواب السحرية
لكي تدخلها على المحكمة

وكان بالمحكمة ميزان كبير يقف بجانبه الله لتدون تنتائج حساب الآرواح.
وكان يجلس في جوانب المكان اثنان وأربعون مخلوقاً مفترعاً وهم الذين يعاقبون
الخطاة الذين اقترفوا ذنوباً معينة ، فإذا دخلت روح إلى المحكمة تقدم من هؤلاء
وتعترف لهم بأنها لم تقترف ذنباً من الذنوب المنصوص بعقاب من يقترفاها . بعد
ذلك يحضر قلب صاحب الروح ويوضع في احدى كفتي الميزان ويوضع في الكفة
الاخري ريشة وهي رمز الصدق فإذا رجحت كفة القلب كانت الروح خاطئة
وجزاء صاحبها أن يقذف بقلبه بين رائين وحش عظيم يتكون نصفه من التمساح
والنصف الآخر من فرس النهر وكان دائماً يربض خلف الميزان ليلاًتهم القلوب
الخاطئة . أما إن رجحت كفة الصدق «الريشة» ، فإن هوروس يقود الرجل إلى
حضره أوزوريس حيث يسمح له بالدخول في السماء

ولكن ما هذه السماء ؟ لقد كون المصريون عنها عدة أفكار متباعدة منها ما هو
ظريف وهو أن الآرواح العادلة تصير بحوماً تضيء العالم إلى الأبد ومنها أن
هذه الآرواح ترافق الشمس في سفينتها وتسير معها في سياحتها الأزلية

ولكن الفكرة التي كانوا يرجونها هي ما يتصورونه عن وجود بلد عجيب
يدعى « حقل البردى » في مكان قاص جهة الغرب ، حيث تنمو شجرة القمح
وترتفع ثلاثة باردات ونصفاً في الهواء وتكون ساقيتها يارددة كاملة ، وتكتنف
أرض الحقل القنوات الجميلة المفعمة بالأسماك ، حولها الغاب والبردي ، فإذا
تركت الروح المحكمة سارت في طرق غريبة محفوفة بالمخاطر حتى تصل إلى ذلك
المكان الجميل حيث يقضى الميت . وهو حيث ذكرناه . حياة أبدية في سعادة
لاتشوبها شائبة ، يزرع ويحصد أو يتريض في قاربه أو يلعب في المسام تحت شجرة الجين

ومثل هذه النساء تجذب قلوب من تعودوا الاعمال العظيمة ومارسوا أشق المحرف وكابدوا الكثير من متاعب الحياة؛ أما النساء، فهم يسيرون في النساء، فهم لا يقومون بأى عمل على الأرض فلماذا يكلفون أنفسهم بذلك؟ وأعملوا الفكرة ليهتدوا إلى طريقة يستطيعون بها أن يستطحروا عليهم عيدهم إلى النساء وأظنهم حاولوا ذلك في بادئ الأمر بقتل العبيد في قبر سيدهم، حتى يرافقوه إلى النساء ويقوموا بأعماله كما كانوا يفعلون في الأرض.

ولكن لما كان المصريون ميالين بطبعهم إلى الرأفة فقد نفروا من هذه الطريقة الشنيعة، ووجد الإشراف طريقة أخرى لتنفيذ فكرتهم وهو أنهم كانوا ينحتون من الأحجار وجوها تشبه أوجه العبيد، وكانتوا ينحتون مع كل عبد آلة للعمل فهذا على كتفه مجرفة وذاك في يده صندوق، وهكذا

وكانوا يسمون هذه الوجوه «المجيبين» Answerers فإذا دفن أمير دفوا معه جملة منها حتى إذا وصل النساء ودعى للقيام بعمل في «حقل البردى» ناب عنه في العمل «المجيبون»، ولهذا تجد مع الأجسام المحنطة كثيراً من هذه الوجوه مكتوب عليها أسطر تخبر العبد عن العمل الذي سوف يقوم به في الدنيا السفلية، واليتك مثل منها أيها المجيب إذا دعاني أحد لاعمل أى شيء في النساء، كان أروى حقلأ أو أحمل رملاً ينبغي عليك أن تصيح «أنا هنا».

يا لها من فكرة غريبة عن النساء! والأغرب منها ظن النساء بأنهم يستطيعون تحجب العمل والتعب في الدنيا الأخرى بهذه الوجوه الطينية

ولكن يجب علينا ألا ننسى أن المصريين توصلوا كذلك لمعرفة جانب عظيم من الحقيقة التي قررتها الأديان التوحيدية، فكانوا يعتقدون بأن أفعال الإنسان في الدنيا هي التي تقرر مصيره في الآخرة وإن الشرر وإن بحثاً من العقاب في الدنيا فالآلة لا تترك في الدنيا الأخرى بلا حساب أو عقاب

ومن الانصاف أن نذكر أن هؤلاء القوم، الذين دلو على عقريتهم في أحوال كثيرة، لم يكونوا إلا أطفالاً بالنسبة لازمن والعلم، وهم مثل الأطفال في تكوينهم الأفكار الخاطئة المضحكه عن الأشياء التي يحملونها ولا يستطيعون فهمها ومثل الأطفال أيضاً يمدون أيديهم في الظلام يبحثون عن أيهم المحبوب وهم يحملون مكانه فلا حاجة للغرابة إذا أخطأوا في ذلك الزمن وضلوا الطريق

وانما يحق لنا أن نعجب كيف أن «الله»، الذي هدأهم إلى تلك الأفكار السامية وعلّمهم تلك الفتوح العظيمة، قد ترك لنفسه شواهد تدل عليه حتى في تلك الأيام المعاوية

محتويات الكتاب

	صفحة
أرض ذات شهرة قديمة	٣
يوم في طيبة	٧
يوم في طيبة	١٢
فرعون في القصر	١٦
حياة الجندي	٢١
حياة الطفل	٢٨
بعض الأساطير	٣٣
بعض الأساطير	٣٨
استكشاف السودان	٤٤
رحلة استكشافية	٤٨
الحادي عشر	٥٢
المعابد والقبور	٥٧
الثالث عشر	٦٤
قدماه المصريين والسماء	

طبعة المبة الجديدة اصحابها سلامه موسى بشارع الملك نازلي بالقاهرة
مستعدة لطبع جميع الكتب والمجلات أجود طبع